الهوية العربية أصالتنا

بقلم : عبد الكريم العطياوي

من منّا، لا يعتز بلغته العربية، التي هي مقوّم من مقومات حياتنا وأصالتنا ووجودنا وحضارتنا، بها نعبر معا عن كل ما يمت بمشاعرنا وتقاليدنا وعاداتنا الاجتماعية، وتاريخنا التليد، وتعاوننا الصادق مع جميع المجتمعات الإنسانية في السرّاء والضرّاء، باعتبارها أداة اتصال وتواصل وترابط بين المتكلمين بها،إذ تجعل منهم أمة واحدة متحدة معتصمة بلغتنا العربية (2)، تحمي لغتها من المناوئين لها بكل ما اوتيت من دراية وخبرة حتى تبقى لغتها العربية عزيزة منيعة أبد الدهر. بذلك يحق لنا أن نتساءل عن تاريخ ميلادها ؟ وهل تعرضت في مسيرة حياتها إلى مجابهات داخلية وخارجية ؟ وهل وقف حماتها موقفا صارما تجاه تلك المجابهات ؟ وما هو موقفنا من اللهجات العامية ؟ ولماذا نشاهد ونصمت ما نراه صباحا مساء من اللهجات العامية المحلية مكتوبة ومعلقة على الجدران؟ أيدل ذلك على ضعفنا أو تشيئنا باللغة العامية باعتبارها — كما يقولون– لغة الحياة ؟ إذن فما هو واجبنا تجاه هذا الخليط من اللغات الأجنبية واللهجات العامية (3).

تقول ونجيب أولا عن :

1– تاريخ ميلادها

لو رجعنا وبحثنا في أمهات المصادر التاريخية، لوقفنا على حقيقة

تتمثل في النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية التي تثبت لنا أن تاريخ ميلاد اللغة العربية يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، هذه المعلومة التاريخية تحتمل الصدق والكذب بدليل ماجاء في كتاب : اللغة العربية والوعي القومي للدكتور محمد مطلوب الذي يرى : أنها لغة موغلة في القدم، لا يعرف أحد نشأتها الأولى، "وفي مقارنتها بلغات أخرى من حيث الإيقاع والتدفق، هناك من يضعها في صدارة ما عرفت البشرية من نماذج لغوية شرقا وغربا" (1): يقول الكرملي : "إن لسان العرب فوق كل لسان ولا يدانيه لسان آخر من ألسنة العالم جمالا ولا تركيبا ولا أصولا، بناء على هذه الروايات نقول إن لغتنا العربية موغلة في القدم، وهي في مقدمة اللغات العالمية من حيث جمالها وتركيبها وتأديتها لكل المعاني، واستيعابها لجميع العلوم بمختلف أنواعها، كالطب، والرياضيات وعلم الاجتماع والكيمياء والتاريخ وتصنيف العلوم، إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على اشتقاقها وتوالدها وتمططها وتعريبها لما يجد من العلوم في المجتمعات الأخرى.

2- تعرضها في مسيرة حياتها إلى مجابهات داخلية وخارجية

بناء على هذه الهالة والسمعة العالمية، التي اشتهرت بها لغتنا العربية، تحركت بعض الأقلام المأجورة من بعض المستشرقين المدفوعين بدافع الحقد والكيد والتشكيك في صحة الشعر الجاهلي وفي نسبته لأصحابه، فقللوا من قيمته وادعوا أنه منتحل جاف كجفاف ارض العرب الصحراوية، أذكر البعض من هؤلاء المستشرقين على سبيل المثال

كلامانس ويوسف شاخت وقولدزيهر الذين اشهروا حربهم على اللغة العربية، تطبيقا لوصية لويس التاسع الذي فشل في حملته الصليبية.

وقد نسج على منوالهم الأديب الكبير طه حسين المتأثر بأساتذته المستشرقين بجامعة السربون الفرنسية. لكن أمام هذه الحملات الثقافية، أعلن جمع كبير من الكتاب العرب في الأمة العربية حملات تشهيرية مضادة، تندد بهؤلاء المغرضين وتكذب ادعاءاتهم ، مدافعين عن فصحاء العرب في الجاهلية الذين اشتهروا بخطبهم، أمثال قس بن ساعدة الأيادي وعمرو بن كلثوم التغلبي وأكثم بن صيف التميمي والحارث بن عياد البكري وقيس بن زهير العبسي وعمر بن سعد يكرب الزبيدي الذين توخوا أسلوب الترسل، وظهر في خطبهم السجع " (3).

مما حدى : بالأستاذ أحمد الزيات في كتابه : تاريخ الأدب العربي ص 19 يشيد بمتانة لغتنا العربية وقدرتها على التعبير قائلا : " يمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف ولا زخرف ولا غلو، يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ متين التركيب قصير الجملة موجز الأسلوب، قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحي الفكرة، وربما تساوقت فيه الحكم، واطردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة" (4).

كما أشاد بها جمع من بعض المستشرقين المعتدلين أمثال رينان- وكارليل- وتولستوي الروسي الأصل وفكتور هيكو صاحب كتاب البؤساء، الذين أقروا جميعا بجمال اللغة العربية ونفاسة شعر المعلقات

السبع ومتانة شعر صعاليك العرب التي من بينها لامية العرب التي صارت تدرس في الجامعات الأوروبية لبلاغتها ولما فيها من مبادئ أخلاقية ونزعة اشتراكية" (5) .

لكن مع هذا الرد المنطقي على أولئك المغرضين المذكورين، نرى البعض من الكتاب العرب يدعو إلى إلغاء لغته والنظر إليها بالدّون، وتعويضها باللغة العامية، والاستغناء عنها، مدعين قصورها كأحمد لطفي 1913 وأنيس فريحة 1955 منادين بشعار يتمثل في أن اللغة العامية هي لغة الحياة .

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل انبرى امين شميل يدعو إلى التخلي نهائيا عن العربية الفصحى، والعامية، وإبدالهما بلغة أجنبية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3- موقف حماتها تجاه تلك الهجمات

هذا الموقف اللامسؤول من بعض الكتاب العرب، يدل على نكران واضح لركن من أركان أصالتهم وهويتهم العربية وارتمائهم بمحض إرادتهم في هوية لغوية أجنبية خارجية، إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ضعف واستسلام هؤلاء إلى لغات ولهجات لا تمت بصلة إلى وطنهم، مما دفع شاعرنا العربي محمد حافظ إبراهيم إلى تأليف قصيدة شعرية، عنونها بقوله : اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها، فهي الجواب الملجم لكل لسان يذم اللغة العربية فقال :

رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي

ولدت كما لم أجد لعرائسي

رحالا وأكفاء وأدت بناتي

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن أي به وغضاتي

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

أنا البحر في أحشائه الدر كامن

فهل سألوا الغواص عن صدفاتي ؟

أيطربكم من جانب الغرب ناعب

ينادي بوأدي في ربيع حياتي

ARCHIVE

وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق

http://

حياء بتلك الأعظم النخرات

أيهجرني قومي – عفا الله عنهم–

إلى لغة لم تتصل برواة

سرت لوثة الأعاجم فيها كما سرى

لعاب الأفاعي في مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة

مشكلة الألوان مختلفات

إلى معشر الكتّاب والجمع حافل

بسطت رجائي بعد بسط شكاتي

تعلم هذه القصيدة الشعرية أولئك الكتاب العرب المستسلمين للغات أخرى. أن لغتهم العربية قادرة على استيعاب كلّ ما جدّ وما يجد من العلوم العصرية بمختلف أنواعها.

إذ كانت عبر التاريخ أداة علم، ونقل المعرفة إلى غيرهم من الشعوب الأجنبية الأخرى بدون من ولا رياء، فياليتكم تعلمون وتعرفون قدرتها وكفاءتها وسهولة تعاملها مع جميع الناس بدون استثناء، كما أيقظ أحمد حسن الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي المثقفين العرب بأن يتمسكوا بلغتهم، نسجا على منوال غيرهم من الشعوب الأخرى فقال

معبرا عن نداء العربية

فلا تكلوني للزمان فإنني

أخاف عليكم أن تحين وفاتي

أرى لرجال الغرب عزّا ومنعة

وكم عزّ أقوام بعز لغاتٍ

أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا

فياليتكم تأتون بالكلمات

بهذا الدفاع الصادق من بعض الكتّاب العرب والمستشرقين المعتدلين والشاعرين المخلصين لهويتهما العربية، برهان ساطع على قدرة العربية واستيعابها لجميع ما يفكر فيه الإنسان من قريب أو بعيد، ويجعلها بحق لغة الحياة الأبدية، إلا أن البعض من ذويها انتابهم الضعف وانساقوا وراء الهجومات المعادية للعربية نظرا لقلة باعهم ومعرفتهم بأسس لغتهم

العربية القوية .

4-.موقفنا من اللهجات العامية المعلقة على الجدران :

نقول باعتزاز لهؤلاء المستسلمين للغات أجنبية ولهجات عامية، إننا متمسكون بهويتنا وأصالتنا العربية التي عزّزها الله بالقرآن الكريم فقال تعالى : "إنّا جعلناه قرآنا عربيا" الزخرف 3 وقال أيضا : "بلسان عربي مبين" الشعراء 195

كما نعلمهم أيضا أن لغتنا العربية لن تنقرض أبدا لماذا ؟ لأنّ الله تعالى تكفل بحفظها إلى يوم الدين، كما حفظ قرآنه المنزل بها قال تعالى : "إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون" الحجر 9.

بموجب هذا نعلن صراحة، أن علماءنا قد شعروا بهذه التحركات المضادة للغتنا العربية، فألفوا كثيرا من المعاجم اللغوية والقواميس الحديثة التي انكبت بصفة خاصة على المصطلحات العلمية العصرية لكل ما ظهر وما لم يظهر، مما يدل على أن لغتنا بمقدورها مواكبة النهضة العلمية الحديثة، وأن العجز الذي ينسب إليها مجرّد افتراء واتهام باطل وجهل بسيط لمسيرة حياتها، لأنها استطاعت في وقت ما أن تكون جسر عبور لانتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبي بدون منّ ولا رياء كما وقع ذلك –فعلا- في العصر العباسي.

لكن الضعف والعجز يعود في الحقيقة إلى ذويها من العرب الذين انتابهم الخمول في عصور الانحطاط. ومع ذلك لازالت اللغة العربية محافظة على حيويتها وقدرتها واستيعابها لجل العلوم الحديثة. كما

استطاعت أيضا أن تنقل إلينا المشاعر الوجدانية، والخيالات الشعرية والفلسفية، والآيات القرآنية بسهولة، في حين أننا نعلم جميعا أن هذه المعاني كانت أشدّ صعوبة وتعقيدا من قطع غيار المخترعات العصرية : التي توجهت إليها لغتنا العربية بالذات، وأوجدت لها المصطلحات العلمية المناسبة لتلك المخترعات الصناعية، لتثبت للداني والقاصي قدرتها وحيويتها وتفاعلها الإيجابي مع أخواتها من اللغات الأجنبية. مستعملة في ذلك طريق الترجمة. الذي هو قاسم مشترك بين جميع اللغات. والفضل في ذلك يعود إلى علمائنا في اللغة العربية الذين انكبوا — في بحوثهم اللغوية- على بعث مجامع لغوية وقواميس علمية عديدة تناسب وتوازي قواميس الدول الصناعية. هذه النهضة العلمية المباركة بلسان عربي مبين، ترجمته بلادنا التونسية في الفصل الأول من الدستور التونسي، عندما أعلنت : تونس العربية لغتها والإسلام دينها والجمهورية نظامها لم تكتف بذلك، بل كنا نلاحظ كما يلاحظ غيرنا أن كل محادثات السلطة التنفيذية والتشريعية — داخليا وخارجيا- لازالت متمسكة باللغة العربية في معاملاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والتشريعية والقانونية، مما يجعلنا نشيد ونبارك هذا السلوك الطيب الذي يعتبر — في نظرنا- إسوة حسنة لغيرهم، كان من واجب المؤسسات الاقتصادية الأخرى، أن تنحو في إشهار مشاريعها الاجتماعية والاقتصادية والصناعية والفلاحية المعلقة على الجدران نحو مسيرة السلطتين وذلك بأن تكون المعلقات واللافتات مكتوبة بالعربية بدلا من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العامية. عندئذ نعطي قيمة لهويتنا العربية التي تطلب من كل مثقف ان يتمسك بلغته العربية، وأن يبرز للوجود البحوث العلمية المعمقة باللغة العربية، بدلا من اللغات الأجنبية، بهذا نستطيع ان نؤثر على أهل الحل والعقد في المؤسسات الجامعية العلمية أن يبرزوا لنا بعض الدراسات العلمية العصرية بلغة عربية استجابة لنداء شعبهم العربي المعتز بلغته .

5-دليلنا على أن لغتنا العربية هي لغة الحياة :

باعتبارها جزءا هاما من أصالتنا القومية، ومقوما من مقومات كياننا الاجتماعي، وأداة من أدوات ديننا الحنيف ، الذي أغناها ورفع سمكها فسواها، وأشرق ضحاها (6) فأصبحت بذلك وسيلة من وسائل اتحاد الشعوب العربية، لماذا ؟ لأنها المعبّرة الوحيدة عن عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم وهويتهم وأغراضهم ومشاعرهم وثقافتهم. إذ تقرّب بينهم وتقوي لحمتهم كيف لا ؟ وهي التي أقاموا لها مناسبات من التكريم كسوق عكاظ لماذا لا نحافظ على هذه المناسبات من التكريم حتى نعمل على تنميتها مثل غيرها من اللغات الأجنبية ؟ بذلك نكون قد قدمنا لها خدمة جليلة. لأنها تعاصرنا وتعيش معنا في كل وقت بها نعبر عن مشاعرنا، وعنها نتلقى معارفنا وأخبارنا وعلومنا ألم تستحق هذا التكريم ولو مرّة واحدة في السنة ؟

نعم هي أهل لذلك التكريم، وجديرة به فلم لا نجعل لها عيدا كأعيادنا الوطنية والدينية ؟ حتى يزداد عدد حماتها تعلقا بها، باعتبارها لغتهم الرسمية .

6- واجبنا تجاه هذا الخليط من اللغات الأجنبية والعامية :

لأن الخليط اللغوي بين لغتنا العربية واللهجات العامية، قد ازداد تفاقما في الحافلة والمترو الخفيف والقطار واللافتات الإعلامية، والمحادثات اليومية، مما يدل دلالة واضحة على غزو لغتنا العربية الفصحى في عقر دارها، هذا الغزو أثر وألم الكثير من الأدباء العرب والأساتذة المختصين في اللغة العربية، مما جعلهم يطلقون صيحة فزع أذكر البعض منهم :

كحافظ إبراهيم وأحمد حسن الزيات وعبد السلام المسدي الذي يقول : إنه تحت ضغط اللغة الأجنبية، وضغط العامية، ستتأثر الفصحى ويتقلص نفوذها، وإذا استمر الأمر على ماهو عليه اليوم، وعمّا هو متوقع في المستقبل القريب، فإن اللغة العربية ستؤول تدريجيا إلى الضمور والأفول وستتحول إلى لغة مرتهنة جدا في طقوسات رسمية جدا أو تعبدية جدًا " (7). ويستطرد قائلا : "إن هذا الخليط أصبح مرسوما في سجلات الخطط الاستراتيجية الدولية. فهناك جهات دولية تعرض اليوم تمويلا سخيًا لإنجاز مسلسلات عربية، شرط أن تكون بالعامية لا بالفصحى.

وفي التشريعات التربوية الجديدة في فرنسا ألغيت العربية الفصحى كلغة أجنبية وحلت محلها مجموعة من العاميات العربية كعامية شمال إفريقيا وعامية مصر وعامية المشرق العربي " 8.

علام يدل هذا ؟ يدل هذا أوّلا على ضعف انتاب أهل اللغة العربية،

وثانيا : على تخطيط محكم من الدول الأجنبية الاستعمارية التي تريد القضاء على الهوية العربية، وبالتالي على طموحات الشعب العربي في الوحدة، لكي تطمئن على مخططاتها الاستعمارية لكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لماذا ؟ لأن في الوطن العربي الكبير رجالا ونساء أكفّاء، شاعرين بمسؤوليتهم العربية تجاه تلك المخططات المعادية لتطلعاتهم فتوحدوا منادين بحماية لغتهم العربية من ذلك الخليط اللغوي بمختلف أنواعه، ومن النيات المبيتة عن قصد من تلك الدول الأجنبية.

فلماذا لا نساعد هؤلاء الأخوة من الرجال والنساء ؟ ولماذا لا نكون مثل الصينيين والفرنسيين والإسرائليين الذين حموا لغاتهم، وجعلوها لغات قائمة الذات؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعتقد أننا سنكون مثل هذه الشعوب، شرط تمسكنا بهويتنا العربية التي تملي علينا النهوض بها، وذلك بمحاولات فردية وأخرى جماعية، كأن نتوجه بطلب أكيد إلى السلط التنفيذية بأن تحقق رجاءنا المتمثل في حماية لغتنا العربية من كل ما يمسها من قريب أو بعيد، وأن تجعلها لغة الأدب والعلم والتقنية الحديثة، لتواكب اللغات الأجنبية الحية، وهذا ليس ببعيد المنال عن سلطتنا التنفيذية التي ستعمل جاهدة على تحقيق هذا المطلب الهام.

لكن يبقى إشكال واحد في الأفق، فلابد من تسويته، وهو ان البعض

منا بحكم ثقافته وميوله الفطرية متشبث باللغة الأجنبية واللهجة العامية، فندعوه شيئا فشيئا إلى الحوار الإيجابي في هذه القضية، حتى يقتنع بصحة دعوتنا فينحاز من تلقاء نفسه إلى صفنا، لماذا ؟ لأنه عربي، انحدر من سلالة عربية، ووسط اجتماعي عربي فنقول له من اعتز بغير أهله ولغته ذل .

الهوامش :

1- المنتصر عبد الحميد : العربية قد تندثر ... والجنس العربي قد ينقرض : الإحياء 181 ص 46.

2- د. مطلوب أحمد : اللغة العربية والوعي القومي : مركز دراسات الوحدة العربية

3- العياري عبد المجيد : النقد الأدبي في مراحله الأربعة : نداء الهوية في زمن العولمة وصراع الحضارات: ص 15-16

4- نفس المصدر ص 63.

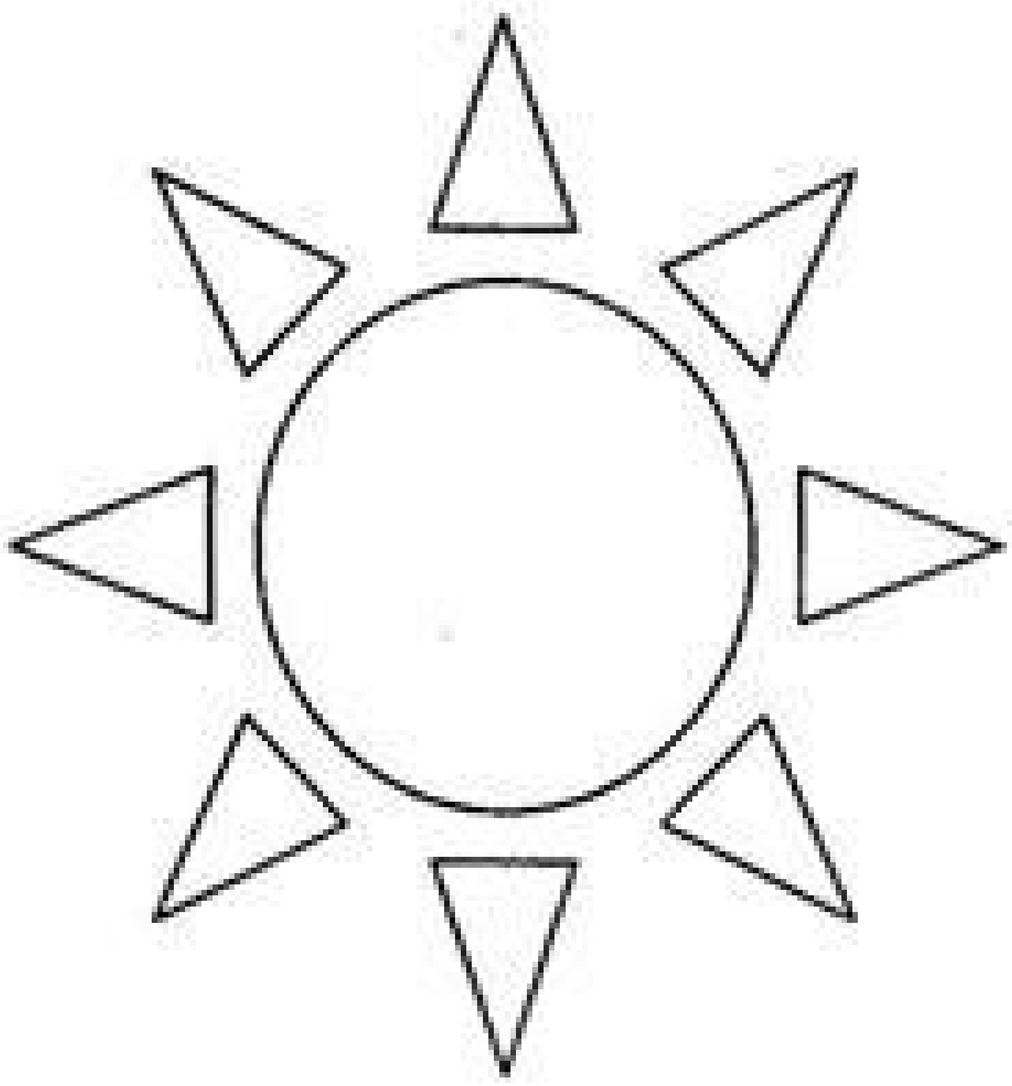
5- نفس المصدر السابق ص 61.

6- السعدي/ أبو زيان : محمد الصادق بسيس : حياته وآثاره / 194.

7- المسدي عبد السلام : مجلة العربي : العدد 587 أكتوبر 2007 ص 66 .

8- نفس المصدر ص 66-67.

ARCHIVE



أساليب الحوار

بقلم : د. صالح الداسي

للحوار أساليب متعددة ومتنوعة من أبرزها :

1- التقرير :

وذلك بعرض الحقائق على الخصم وكأنها من المسلمات البديهية التي لا تقبل الإنكار أو الجدال (55) وهو ما دل عليه قوله تعالى : " وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين " (الأعراف : 73-74).

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسير الآيتين : "فقد أشعرت مجادلتهم صالحا في أمر الدين على أن التعقل في المجادلة أخذ يدب في نفوس البشر وأنّ غلواءهم في المكابرة أخذت تقصر وأن قناة بأسهم بدأت تلين ... " (56) أو اقام الخصم الرسول في صيغة احتجاج وتقرير كقوله تعالى : " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم"

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والذي قاده إلى هذا هو سياق الآية المتعلق بإمهال الله قوم صالح بأن أرسل لهم ناقة لها شرب يوم ولهم شرب يوم عظيم .

مع الملاحظة أن عناصر القصة حسب الدكتور محمد أحمد خلف الله خمسة :

1- الأشخاص 2/- الحوادث 3/- الحوار 5/- القضاء والقدر 5/- المناجاة

هذا وإنّ الحوار لم يوجد في القصص الصغيرة. أما عنصر المناجاة فهو من العناصر الفنية في القصص والتي وجدت قليلا في القصص القرآني لأنه يقوم (على مناجاة الشخص لنفسه ليسمعه غيره وهذا واضح في قصة نوح حين دعا على قومه) (57).

2- التلقين :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويتمثل في تلقين الله سبحانه وتعالى رسله أثناء حوارهم مع اقوامهم من أجل دعوتهم إلى طريق الحق (أو دفع شبهاتهم لإظهار العناية برسله لذلك نجد سبحانه وتعالى يأمر رسله بعبارة (قل) أو نحوها (58) و(قال) أو (قولا) أو (قولوا) مثل قوله تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (آل عمران : 31) وقوله تعالى : "قل صدق الله فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (آل عمران : 95) وقوله تعالى مخاطبا موسى وأخاه هارون عليهما السلام : "فأتياه فقولا إنّا

رسولا ربّك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم قد جئناك بآية من ربّك والسّلام على من اتّبع الهدى إنّا قد أوحي إلينا أنّ العذاب على من كذّب وتولّى " (طه : 47-48). قال الزمخشري في تفسير هذه الآية (وإنما وحّد قوله بآية ولم يثنّ ومعه آيتان لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال : قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة (60). وإذا ما تعمقنا أسلوب الآيتين السابقتين من سورة طه وجدنا الأسلوب جمع بين الدعوة إلى وحدانية الله تعالى وبين الترغيب في اتباع الهوى، وبين الوعيد لمن كذب وأعرض وتولى ، وهو ما يعبر عنه بأسلوب المراوحة بين اللين والشدة والوعد والوعيد والبشارة والنذارة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3- المحاجة :

يقال لغة : (حاججته فأنا محاجّ وحجيج على وزن فعيل ومنه حديث معاوية . "فجعلت أحجّ خصمي أي أغلبه بالحجة) (61).

بالمحاجة هي (إقامة البرهان عن طريق التحاكم إلى العقل أو إلى القضايا التي لا تكلف الإنسان في إدراكها سوى الرجوع إلى الحسّ والتجربة) (62).

من ذلك قوله تعالى : "واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظلّ لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون " (الشعراء : 69-73).

والأسلوب في هذه الآيات يغلب عليه طابع المقاولة (سؤال وجواب)، يوجه أنظار المخاطبين على التأمل الحسي فيما حولهم من معبودات باطلة لا تسمع ولا ترى وبالتالي لا تنفع ولا تضر ولا تجدي نفعا. وهو ما يؤكده قوله تعالى : "وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم" (الأنعام 83) فإبراهيم ابان لقومه (أن هذه الآلهة لا تدافع حتى عن نفسها فوجه أنظارهم إلى الإله الحق) (63) ومن ذلك مثلا قوله تعالى : "ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا تصفون (المؤمنون 91) ولذا فإن (الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه وتلزم الخصم بالحجة (64) وتجعله يسلم إلى ما يدعوا غليه المحاجج وذلك من أفانين الكلام لإصلاح المشرك وتوجيه الكافر إلى وحدانية الله تعالى ودعوته إلى الصراط المستقيم .

4- التذكير بالنعم والتخويف من العذاب عن طريق الوعيد :

إن النفس الإنسانية بطبيعتها محبة للخير مناعة له والله تعالى أنعم على الإنسان نعما ظاهرة وباطنة لكنه قد ينحرف عن الطريق السوي بالنعم فكان من مناهج التربية القرآنية ان ذكّرت الناس بنعم الله تعالى عليهم ليشكروه ويحافظوا عليها ويحسنوا التصرف فيها، كما توعدهم الله عن طريق التخويف والوعيد إن هم أساؤوا

التصرف فيها بالعذاب الشديد، لذلك نجد القرآن يتبع تارة أسلوب الترغيب والوعد، وتارة أسلوب التخويف والتحذير وما ذاك إلا (مسايرة لطبيعة الإنسان التي قضت أن تكتنفه عاطفة الرغبة فيما يجب، وعاطفة الخوف مما يكره) (65).

فالله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وعد المتقين بالجنة وتوعّد من ضلّ عن سبيله بالجحيم والعذاب الأليم. قال تعالى : "يوم يأت لا تكلّم نفس إلاّ بإذنه فمنهم شقيّ وسعيد (هود : 105) وقال تعالى مذكّرا عباده بنعمه عليهم ومحذّرا لهم من عاقبة الارتداد والكفر : "وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وءاتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين " (المائدة : 20-21)، ولا يتوهم أحد أنّ الغاية من ذلك هي تحذير الناس حتى لا يكونوا من أهل السعير فقط بل (لتمكين نفوس المخاطبين من قبول ما يرسم لهم من السلوك عن طيب نفس وثقة باعتبار أنّ العالم الدنيوي تهيئة للنفوس البشرية للتأهّل إلى تعمير العالم الأخروي لتلتحق بالملائكة) (66) لكن التأهيل ليس للآخرة فقط بل للدنيا أيضا مصداقا لقوله تعالى : "ولا تبغ الفساد في الأرض" (القصص: 77).

5- محاولة التبرير :

إنّ المعرض عن عبادة الله يحاول تبرير عبادته الباطلة وذلك (بالتماس الأعذار إبقاء على وضعه، وتخلصا من الدعوة الجديدة التي تصادم أهواءه) (57) وهذا يدرك من قوله تعالى : "وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرّسول إلاّ البلاغ المبين" (النحل: 35)، قال البيضاوي في بيان الآية (ما على الرسول إلا البلاغ الموضح للحق وهو لا يؤثّر في هدى من شاء الله هداه لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسّط، وما شاء الله وقوعه لا مطلقا بل بأسباب قدّرها له) (58) فالله سبحانه وتعالى هيأ الأسباب التي تساعد الإنسان على الإيمان ومن أهمها إرسال الرسل مبشرين ومنذرين كما أنه جل شأنه لا يرضى لعباده الكفر لأنه لو كان كذلك لما حذّرهم من عاقبة الكفر ورغّبهم في مآل الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى : "إن تكفروا فإن الله غنيّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر" (الزمر:7).

6- الازدراء والاستخفاف : (69)

إن المعرض عن ذكر الله ودعوة الرسل يصمّ أذنيه كأنّ فيهما وقرا، ويناصب الرسول العداء ويحطّ من قيمته ومنزلته كبرا وعزّة بالإثم، وهذا نلمسه من قوله تعالى على لسان فرعون : " قال ألم نربّك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي

فعلت وأنت من الكافرين" (الشعراء : 18-19)، قال النيسابوري في بيان الآية (سماه كافرا لنعمه بسبب ذلك وجوّز جار الله أن يراد وأنت إذّاك ممن يكفر بالساعة فيكون قد افترى على موسى أو جهل أمره، لأنه كان يعايشهم بالتقيّة وإنما قلنا افتراء أو جهل لأن الكفر غير جائز على الأنبياء ولو قبل النبوة ويجوز أن يرد به من الكافرين بفرعون وألهيّته أو بآلهة كانوا يعبدونها) (70).

ومن الأقوام التي ازدرت بالرسل واستخفت بهم، قوم شعيب قال تعالى على لسانهم: "قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا ممّا تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفا ولاولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز" (هود: 91)، والمراد بالرهط: العشيرة الأقربون، ومعنى الآية (إنك تقول ما لا نصدق به وما أنت علينا بعزيز أي أنه لا يعجزنا قتلك ولا يشتد على نفوسنا لأنك هين علينا ومحقّر عندنا وليس لك من ينصرك منا... فإنك لا تستطيع غلبتنا وقصدهم من هذا تحذيره من الإستمرار على مخالفة رهطه بأنهم يوشك أن يغلعوه وبيحوا لهم رجمه) (71) ويتضح هنا صلف المعرض عن الهداية وصبر الرسول.

7- التهديد والوعيد : (72)

اتبع المعرضون عن الهداية أساليب في الحوار مع رُسلهم مثل التهديد والوعيد (قصد بث الرعب في قلب الرسول وأتباعه وصرفهم عن الدعوة) (73) وهذا يدرك من خلال قوله تعالى على

لسان أزر والد إبراهيم عليه السلام :"قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليّا " (مريم : 46) ومعنى هذه الآية (أترغب عنها إلى غيرها، (لئن لم تنته لأرجمنك) أي لأشتمنك ولأظهرنّ أمرك (واهجرني مليا) أي دهرا طويلا) (74) ففي هذه الآية تهديد ووعيد، تهديد بالهجران ووعيد بالرجم وعلى هذه الشاكلة قال قوم شعيب لنبيهم : "قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملّتنا" (الأعراف 82) . فالتهديد والوعيد ما كان أبدا للرسل لأنهم يتبعون الحوار فيسلكون مع أقوامهم مسلك البشارة والنذارة والتذكير والتحذير، من سوء العاقبة، وهذا ندركه من قوله تعالى على لسان رسوله شعيب وهو يحاور قومه : "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين" (الأعراف : 89).

إن حوار الرسل مع أقوامهم يتسم باللين والحكمة والموعظة الحسنة (وبالترفق في الخطاب بدافع الرحمة والمحبة والإخلاص، كما أنهم يتسامون عن العبارات النانية التي تحمل الشتم أو التجهيل أو نحو ذلك مما يمس بالكرامة الإنسانية، مستحضرين خشية الله بالتوجه إليه وطلب العون والتأييد منه... في حين أن خصومهم يتخيرون العبارات النابية، تفجرها النقمة والغضب ويقذف بها المكر والعناك) (75).

من خلال ما تقدم نتبين بعض المفاهيم التالية :

1- الصراع بين الماضي والحاضر وبين القديم والجديد فالذي يتحاور يرنو إلى المستقبل بخلاف المجادل فإنه يتشبث بتلابيب الماضي ويتمسك به تمسك الميت بكفنه.

2- المحاور عنده معطى جديد ألا وهو الإيمان فليس لديه ضعف أو استكانة بخلاف المجادل الذي يجادل بعنف لانعدام المعطى وضعف الحجة.

3- المحاور لا يسخر من المجادل في حين أن المجادل يسخر من المحاور، لأنه أخذته العزة بالإثم، لذلك نجد من سيرة الرسل الكرام أنهم حاوروا أقوامهم واعتمدوا الحكمة والصبر والاعتصام بالله، لأنهم على هدى وغيرهم على ضلالة وغواية.

4- نبذ التقليد والركون إلى المألوف واستخدام العقل والتأمل في الملكوت.

5- إحياء النفوس وتحريرها بواسطة بعث الأمل في النفس والرجاء في الخالق والتوق إلى اليوم الآخر.

مع الإشارة إلى أن الأصناف الإنسانية التي حاورها القرآن هي :

1- المؤمنون

2- المشركون

3- الكافرون

4-أهل الكتاب

5- المنافقون

الهـــوامش :

56- الدكتور النهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : 415.

57- الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج8 القسم الثاني : 217.

58- الدكتور محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم : الباب الثاني الفصل الخامس : 128.

59- الدكتور النهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : 416.

60- الزمخشري : الكشاف : مجلد 2 : 539.

61- ابن منظور : لسان العرب المجلد الثاني حرف الجيم فصل الحاء : 228.

62- الدكتور النهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : 417.

63- صالح داسي : الألوهية في القرآن الكريم : مجلة جامعة الزيتونة ع 1412-1992 ص 235.

(64) بدر الدين الزركشي : البرهان م 3 : 469.

(65) الدكتور النهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : 417.

66- الدكتور عبد العزيز المحمود : أفعال العباد ص 69

67- الدكتور النهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : 418.

68- ناصر الدين البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج 1: 291.

69- الدكتور فتحي أحمد عامر : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : 106-107.

70- نظام الدين النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج 19 (هـ) جامع البيان : 52.

71- الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير الجزء 12: 150.

72- الدكتور فتحي أحمد عامر : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : 106.

73- الدكتور النهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : 419.

74- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ج 11 ص 111.

75- الدكتور النهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القصة الكريم : 420.

الشيخ محمد الخضر حسين (2)

بقلم: د. أنور بن خليفة

الأساس الأول: اللغة:

إن الأساسَ الأولَ و هو اللغة استحوذ على النصيب الأوفر و لأن "خلفية المفسر العلمية تبدو في تفسيره واضحة و قد تطغى على الجوانب العلمية الأخرى في تفسيره فالزمخشري العالم المفسر اللغوي ظهرت آثار بلاغته و تقدمه في تفسيره **الكشاف** "[1] فقد ظهرت براعةُ الخضر حسين و قدرتُه في اللغة في تفسيره للقرآن الكريم بحيث يمكننا اعتباره تفسيرا لغويا. و تعتبر اللغة في تفسيره من أهم و أبرز الأسس التي قام عليها و استوى على سوقه بل هي العَصَبُ الذي يشدُّ أركانَ هذا التفسير و يُقوِّيه ويميِّزه ويتميز به. فهو يقدِّم علوم العربية على ما سواها في مجمل آثاره و ذلك لأهميتها العظمى عنده إذ يقول في ذلك "... يفهمه(القرآن) كل من له إلمام باللغة العربية سواء عليه كان خبيرا بطرق البلاغة أم فاقد الإحساس التي يتذوق به طعمها ..."[2]

(1) مرتضى محمد تقي الايرواني "الشيخ الطبرسي و آراؤه النحوية من خلال كتابه مجمع البيان " رسالة ماجستيركلية دار العلوم جامعة القاهرة1980 م ص91.
(2) محمد الخضر حسين "بلاغة القرآن " ص 12.

و من خلال تفسيره للقرآن الكريم تبين لي أنه عَكَفَ في مجمل مباحثه المتعلقة بالعربية على :

. المعجم.

.النحو و الإعراب.

. علم البلاغة (المعاني ، البيان، البديع).

– **المعجم:** يعتمد الخضر حسين اعتمادا كبيرا على اللغة فيهتم:

ببيان المفردات: اهتم الشيخ بإيضاح المفردات القرآنية وبيان أصولها اللغوية العميقة ليوفر لقارىء كتاب الله تعالى معرفةً بأصول كلام العرب الذي به نزل القرآن و يكون أقدرَ على فهم النصوص التي تتألف من مثل هذه المفردات. و الأمثلة التالية توضّح ذلك : قال في شرح كلمة "الفاسقين" من قوله تعالى ﴿وَ مَا يُضلُّ بِهِ إلا الفَـــاسِقِين ﴾(3)

"الفاسقون : جمع فاسق. و هو في أصل اللغة: الخروج. يقال فَسَقَت الرطبة من قشرها : أي خرجت منه. و شرعا : الخروج عن طاعة الله، فيشمل الخروجَ من حدود الإيمان و هو الكفر، ثم ما دون الكفر من الكبائر والصغائر. و لكنه اختص في العرف من بعدُ بارتكاب الكبيرة. و لم يُسمع الفسق في كلام الجاهلية بمعنى الخروج عن الطاعة. فهو بهذا المعنى من الألفاظ

---

(3) البقرة الآية 25.

الإسلامية و قصر الإضلال بالمثل على الفاسقين إيذان بأن الفسق هو الذي أعدهم لأن يضلوا به حيث أن كفرهم قد صرف أنظارهم عن التدبر فيه حتى أنكروه..."(4)

– **عنايته بالاشتقاق** : اهتم الخضر حسين بالاشتقاق في تفسيره و ذلك لأنّ معرفة اشتقاق الكلمة يزيد في بيان معناها ويوضحه ومن أمثلة ذلك: يقول في تفسير قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم إذا حَضَرَ أَحَدُكُم المَوتُ إن تَرَكَ خَيْرا الوَصِيَّةُ لِلوَالِدَيْـــنِ وَ الأَقرَبِينَ﴾(5).

"...و الوصية اسم من أوصى يوصي فهو بمعنى الإيصاء وقد تستعمل بمعنى الموصى به. و معنى الجملة : إذا حضر أحدكم الموت و قد ترك مالا كثيرا وجب عليه الإيصاء بجانب منه لوالديه : أبيه وأمه

و أقاربه و بدأ بالوالدين لعظم حقهما ..."(6)

– **معاني الحروف**: و من نماذج ذلك نذكر ما قاله فـــي تفسيره للآية : ﴿ يَجْعَلونَ أَصَابِعَهُم في آذَانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حذرَ المـــَوْت ﴾(7)

---

(4) محمد الخضر حسين " أسرار التنزيل " ص 48 (انظر أيضا أمثلة أخرى ص 323، ص 350).

(5)-البقرة الآية 179.

(6) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 287 (و انظر أيضا لمثلة أخرى ص 14، ص 15).

(7) البقرة الآية 18 .

...و(من) في قوله تعالى (من الصواعق) للتعليل. و إنما كانت الصواعقُ داعيةً إلى سدِّهم آذانَهم بأصابعهم من جهة أنها قد تُفضي بصوتها الهائل إلى الموت. و جاء هذا صريحا في قوله تعالى (حذر الموت) يقال صعقته صاعقةٌ إذا أهلكته بشدّة صوتها أو بالإحراق. و المعنى يسدُّون آذانهم من أجل الصواعق حذرا من أن تقتلهم بروعة صوتها "(8).

كما يعتمد الخضر حسين على النحو و الإعراب و قد تميز منهجه في ذلك بخصائص عديدة منها.

المزج بين المباحث النحوية و البلاغية:

كان كلّما تعرّض لآية خلال تفسيره للقرآن الكريم ذكرها بطريقة تدل على تمكنه من المادة التي يتناولها مع ما عُرف به من الجمع بين المباحث النحوية الإعرابية والمباحث البلاغية عند إعراب الآية الواحدة. فقد يبدأ بإعراب الآية إعرابا نحويا و يفاجئ القارئ بالدخول إلى مبحث بلاغي في نفس الوقت واللحظة و من نماذج ذلك تفسيره الآية الكريمة:

- يقول في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فأمَّا الذينَ آمَنُوا فيعلمونَ أنَّهُ الحقُّ مِنْ ربِّهِمْ ﴾(9)

---

(8) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 34 (و انظر أيضا أمثلة أخرى ص 186، ص 316).

(9) البقرة الآية 25 .

" و أمّا : حرف تصدر به الجملة للتأكيد. تقول زيد ذاهب فإذا قصدْتَ تأكيدَ ذلك و إفادةَ أنّ ذهابَه واقع لامحالة قلت: فأما زيد فذاهب و الضمير في قوله (أنه) يعود على المثل أو على ضربه من قوله (أن يضرب مثلا). و الحق خلاف الباطل و هو الثابت الذي لا يسوغ إنكارُه. و وجه كونه المثل أو ضربه حقا أنه يوضح المبهم و يفصل المجمل. فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق و بيانها .

و قال (إنه الحق) معرّف بـــ" ال "و لم يقل إنه حق للمبالغة في حقيقة مثل .و من المعروف في علم البيان أن الخبر قد يؤتى به معرّفا ب "ال" للدلالة على أن المخبر عنه بالغ في الوصف الذي أخبر به عنه مرتبة الكمال. و أشار إلى ما يتلقى به الكافرون هذه الأمثلة عندما تتلى عليهم فقال تعالى﴿ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذا مَثَلا﴾"(10) .

"ماذا : ما الذي. و الإرادة في أصل اللغة نزوع النفس إلى الفعل. و إذا أسندت إلى الله تعالى دلّت على صفة له تتعلق بالممكنات. فيترجح بهذا أحدُ وجهيْ المقدور. و قد كان جائزَ الوقوع و عدم الـــــوقوع و قوله (مثلا) واقعٌ موقع التمييز لاسم الإشارة. هذا كقولك لمن أجاب بجواب غير مقبول "ماذا أردتَ بهذا الجواب". و كلامُ هؤلاء الكافرين هي لفظة استفهام عما أراد

---

(10) البقرة الآية 25 .

الله من الأمثال و معناه استحقارٌ لهذه الأمـــثال و إنكارٌ لأن يكون الله قد ضربها للناس "[11].

كثافة المادة النحوية :

تكثفت المادةُ النحويةُ الواردةُ خلال إعراب الشيخ محمد الخضر حسين للآيات القرآنية حتى أصبحتْ سِمةً تميَّز بها منهجُه الذى اعتمد فيه على ثقافته اللغوية النحوية دون العودة إلى ذكر مصادره منها على سبيل المثال تفسير لقوله تعالى: ﴿ ... وادخُلـــوا البابَ سُجَّدًا و قولوا حِطـــةٌ ...﴾[12].

"... الحِطـــةُ : من حط بمعنى وضع. و قد وردتْ هذه الكلمة و هي مفردة في معرض الحكاية بالقول (و قولوا حطة) والمعروف أن القول لا يُحكى به إلا الجمل و لا يُحكى به المفردات إلا أن يكون المفرد في معنى الجملة... و من أقرب ما تفسر به الجملة أن يكون (حطة) مصدرا مرادا منه طلبُ حِطـــةُ الذنوب. وقد يجيء المصدرُ المرادُ منه الطلب مرفوعا نحو " سلام عليكم " ويُحمل من جهة صناعة الإعراب على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : مسألتنا حطة أي أن تحط عنا ذنوبا و الاقتصارُ في لفظ

(11) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 47 (و انظر أيضا أمثلة أخرى ص 20).
(12) البقرة الآية 57 .

الجملة على الخبر وحده لقيام قرينة تدل على المبتدأ من أساليب الإيجاز المعدود في أبدع فنون البيان "[13].

- **استخراج الأسرار اللغوية بالاعتماد على أسلوب العرب:**

لَمّا كان الخضر حسين شغوفا باللغة و أسرارها ضليعا في معرفة خباياها كان يعود إلى استعمالات العرب و أساليبهم قاصدا من وراء ذلك أن يصل بالكلمة إلى القرار المكين بحسب مبلغ علمه و إدراكـــــه . و من نماذج ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنتُم هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُم وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِم﴾[14]

"...هذا تقريعٌ لهم لعصيانهم بارتكاب ما نُهوا عنه. و قد وردتْ هذه الجملة على أسلوب قول العرب " ها أنت ذا قائما " فالضمير (أنتم) مبتدأ و اسم الإشارة (هؤلاء) خبر عنه. و جملة (تقتلون أنفسكم) حـــال و هي من قبيل الأحوال التي لا تحمل الفائدة من الأخبار إلا ذكرها... "[15].

و بعدَ أن تتبَّعْتُ منهجَه و موقفَه من استخدام النحو والإعراب في تفسير القرآن الكريم من خلال آثاره و خاصة كتاب

---

(13) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 97 و "الهداية الإسلامية" ص106.
(14) البقرة الآية84.
(15) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 137 (و انظر أيضا أمثلة أخرى ص 181 ص 352).

" أسرار التنزيل" تبيّن لي أنه يمتاز بثقافة نحوية كبيرة جعلتـــه يتخلص من أسر أيمة النحو كسيبويه و الخليل و الفرّاء... وهذا إنّـــما يدلُّ على تمكُّن الخضر حسين من اللغة العربية وامتلاكه لثقافة نحوية واسعة أهَّلته لتفسير القرآن الكريم.

و يندرج ضمن اعتماده على التفسير البياني و اللغوي استشهادُه بالشعر العربي و هو كثيرٌ جدا و متناثرٌ في" أسرار التنزيل" و بقية آثاره .

و قد تميزتْ شواهدُه الشعرية بالقوّة و البيان و التنوع. وكان منهجه يراوح بين إسناد هذه الأشعار إلى قائليها وعدمه وهو في كل ذلك ملتزم بـــ :

– أن يكون الشعر شارحا لبعض كلمات القرآن ومفرداته : مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى ﴿و أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفرِهِم ﴾(16)

"... الإشراب : السقي ؛ هو إيصال مائع إلى الجوف من طريق الفم و استُعمل على وجه حوُّز في خلط لون بلون كأنّ أحدَ اللونين سقى الآخرَ فقالوا : بياض مُشربٌ بحمرة و قالوا : أُشرب قلبُه على حب كذا إذا خالط حبُّه قلبَه :

(16) البقرة الآية 92 .

إذا ما القلب أُشرب حُبَّ شيء ++ فلا تأمل له الدهر انصرافا (الوافر)

"ففي جملة ﴿و أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ ﴾مضاف بمحذوف لدلالة المعنى عليه و هو لفظ "حب" والتقدير حب العجـــل. و المعنى أنّ حب العجل خالطهم حتى خلص إلى قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن. و حذفُ لفظ الحب من نظم الكلام يشعر بشدّة تعلق قلوبهم بالعجل حتى كأنهم أشربوا ذات العجل..." (17).

– **أن** يؤكد بالشاهد من الشعر ما ترشد **إليه الآية من معان** : مثل ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿فلا تمـــوتـــنَّ إلا وأنتمْ مُسْلِمُون﴾(18)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

"تفيد هذه الجملة بحسب وضعها الأصلي النهيَ عن الموت في حال غير حال الإسلام و ليس الموت في استطاعة الإنسان حتى ينهى عنه أو يأمر به. و إنما النهي في المعنى متوجّه إلى أن يكون المخاطبون في حال لو جاءهم الموتُ وهم متلبـــسون به، لوقعوا في خسران مبين فنهيهم عن الموت في حال غير حال الإسلام يراد منه الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الوفاة. والمعنى اثبتوا على الإسلام و استقيموا على مَحَجَّتِهِ البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم

---

(17) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 152.
(18) البقرة الآية 131 .

في حال كونكم مسلمين. و كما ينهى عن الموت في حالة و المراد عن التلبس بتلك الحالة يأمر بالموت في حالة و المراد الحث على التلبس بتلك الحالة كما يقال : مُتْ و أنت شهيد. والمراد الحث على الاستشهاد في سبيل الله. ومن هذا القبيل قول المتنبي :

عشْ عزيزا أو مُتْ و أنت كريم ++ بين طعن القنا و خفق البنود (الخفيف) ".[19]

– **أن يورد الشعر بيانا و تأييدا لأوجه البلاغة :** مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿و ضُرِبَتْ عليهِمُ الذِّلّـَةُ والمَسْكَنَةُ﴾[20]

يقول "الذلة : الهوان .و المسكنة : الخضوع و ضرب الذلة و المسكنة عليهم كناية عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه. كما قال زياد الأعجم في عبد الله بن الحشرج :

إن السماحة و المروءة و الندى ++ في قُبَّةٍ ضُربتْ على ابن الحشرج (البسيط) [21] .

و هكذا نراه في عرضه للآيات القرآنية يتعامل معها بروح اللغوي الأديب والمفسر الذي ينطلق من قاعدة اللغة و يجعلها

---

(19) محمد الخضر حسين *أسرار التنزيل* ص 213.
(20) البقرة الآية61 .
(21) محمد الخضر حسين *أسرار التنزيل* ص 105.

أساس التفسير ثم يعضدُها بالشعر العربي انطلاقا من أن في القرآن بعض الآيات التي تستوجب العودة إلى الشعر لكشف معانيها وتبيان ألفاظها و هو ما يؤكد اهتمامَه الشديد بديوان العرب و إلمامَه بوجوه الإعجاز البياني.

و البلاغة القرآنية كانت من أكبر أهداف الخضر حسين فعِلـــْمَا المعاني و البديع اللذان أشار إليهما الشيخ في مختلف آثاره التفسيرية من الأمور التي تأثّر بها من مدرسة عبد القاهر الجرجاني والزمخشري

و لعل أهم الأوجه و القضايا البلاغية التي تناولها الشيخ بالبحث والدراسة هي:

– **الإيجـــاز**: حين يعرض الشيخُ لأسلوب الإيجاز في القرآن الكريم نراه معنيـــًا بالإشارة إلى ما أُوجز فحسب دون أن يومئَ إلى موضع الحُـــسن في ذلك الأسلوب و قد اعتبر الشيخ للإيجاز أنواعا منها : حذف المبتدأ و حذف الجمل التي يدل الكلام على تقديرها و استعمال المفرد في معنى الجمع إضافة إلى إيجاز الحذف و ذكر البدل وحذف المبدل منه.

– **المجـــاز**: و المجازُ من المباحث البلاغية التي عرض لها محمد الخضر حسين في تفسيره من ذلك مثلا قوله في تفسير : قوله تعالى

﴿ يُخرِج لنا مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ مِنْ بَقْلِهَا وقِثَّائها وفُومِها وعَدَسِها وَ بَصَلِهَا ﴾[22]

يقول : إخراج النبات : إظهاره بإيجاده و المنبت له في الحقيقة هو الخالق جل شأنه. وإسناده إلى الأرض في قوله (تنبت الأرض) أخذا بعادة إسناده إلى الأرض على وجه المجاز و إسناد الفعل إلى المكان الذي يقع فيه أسلوب عربي فصيح و الحقيقة في قوله تعالى﴿ و أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[23].)[24]

– الأساس الثاني: التفسير بالمأثور:

يعتمد الشيخ محمد الخضر حسين في تفسيره للقرآن الكريم نهجَ التفسير بالمأثور حيث يفسِّر القرآن بالقرآن والقرآن بالحديث النبوي و القرآن بأقوال الصحابة و التابعين فمَنْ بعدَهم من العلماء والفقهاء و كذلك أسباب النزول و اعتماد أوجه القراءات وأصحاب السير والأخبار.

تفسير القرآن بالقرآن: اشترط العلماءُ على من أراد تفسير القرآن أن ينظر أولا في كتاب الله العزيز ليصل إلى المعنى الصحيح، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا فما جاء منه مجملا في مكان يفسر ما جاء مبينا في مكان آخر و ما جاء موجزا يستعان على بيانه بما جاء

---

(22) البقرة الآية 61 .

(23) ق الآية 9 .

(24) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 104.

مسهبا و قد اعتد الخضر حسين بهذا النوع من التفسير اعتدادا واضحا في" أسرار التنزيل" إذ نجده في تفسيره للقرآن الكريم يعتمد القرآن في:

– الاستدلال على معنى كلمة بما ورد من معناها في آيات أخرى: ومن نماذج ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَ لاَ تقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظـّـالِمِين ﴾[25]

يقول "القرب : الدنوُّ. و لم يذكر القرآن نوع هذه الشجرة على عادته من عدم التعرض لذكر ما لم يدعو المقصود من سوق القصة إلى بيانه. و المنهيُّ عنه هو الأكلُ من ثمار الجنة و تعليق النهي بالقرب منها إذ قال (و لَا تَقْرَبَا) لقصد المبالغة في النهي عن الأكل إذ في النهي عن القرب من الشيء قطعٌ لوسيلة التلبـــُّس به كما قال تعالى : ﴿و لَا تَقْرَبُوا الزِنَا﴾[26] فنهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه وهي القرب منه[27].

– الاستدلال على معنى كلمة مجملة بما فصل في مكان آخر: يقول في تفسير قوله سبحانه تعالى : ﴿و ما أنْزِلَ إلى إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ و إسْحَاقَ و يَعْقُوبَ والأسْبَاطِ ﴾[28].

---

(25) البقرة الآية 34 .
(26) الإسراء الآية .32
(27) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 61 " روائع مجلة الهداية الإسلامية" اعداد و ضبط علي الرضا التونسي الدار الحسينية للكتاب دمشق 1999 ص 107–108 .
(28) البقرة الآية 135 .

"ما أُنزل إلى إبراهيم الصحفُ المشارُ إليها بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى﴾[29]. "([30])

— **الاستدلال بالقرآن على تعدُّدِ المعاني للكلمة الواحدة:** تفسيره لقوله تعالى:﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[31]

"و الشاهدون : الذين يشهدون بالتوحيد و ما لا يتم الإيمان إلا به أو الأنبياء عليهم السلام فإنهم شهداء على أممهم يوم القيامة كما قال تعالى﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[32]. "[33]

— **نفي الاحتمالات و تعدد الأقوال فيحمل الآية على آية أخرى:** و من نماذج ذلك تفسيره لقوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[34]

"و النعمة : المنعم به و تُجمع على نِعَم و قد وردت في القرآن بمعنى النعم و لا تحتمل غير هذا المعنى كما قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[35] .فلفظ العد و الإحصاء يعني أنه أريد بها النعم الكثيرة. و النعمة في هذه الآية التي نحن

([29]) الأعلى الآيتان 16-17.
(30) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 218 و انظر أيضا ص 243.
(31) آل عمران الآية 53 .
([32]) النساء الآية 41 .
(33) محمد الخضر حسين"أسرار التنزيل" ص 325 و انظر أيضا ص 163.
(34) البقرة الآية 39.
(35) إبراهيم الآية 36.

بصددها يترجح حملها على معنى النعم إن لم يقم دليل من الآية على أنه أريد بها نعمة معهودة. "(36)

– تأييد ما ورد في آية بما نص عليه في آيات أخرى: قال في معرض تفسيره لقوله تعالى :﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...﴾(37)

"هذه جملة مستأنفة لبيان حكمة الإذن للمريض و المسافر في الفطر و هي أن الله تعالى بنى تشريعه على اليسر والرفق كما قال تعالى﴿ و مَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِـــي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(38) " (39)

تفسير القرآن بالحديث: كما فسّر القرآنُ الكريم بعضه بعضا فسرت السنة النبوية كثيرا من القرآن. و إذا رجعنا إلى كتاب الله تبارك وتعالى وجدناه يشهد بذلك فقد قال تعالى ﴿ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(40)

المطلع على تفسير الخضر حسين للقرآن الكريم و خاصة في كتابه "أسرار التنزيل" و بقية آثاره يجده يعتمد الحديث النبوي لـــ:

– تفسير معنى لفظ في الآية أو يعاضدها و يساندها فيما ترمي إليه.

---

(36) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" ص 71 انظر أيضا ص 163.
(37) البقرة الآية 184.
(38)- الحج الآية 76.
(39) محمد الخضر حسين "أسرار التنزيل" 296.
(40) النحل الآية 44.

- توضيح حكم في القرآن.
- اعتماد الخضر حسين الحديث النبوي لتأكيد و تأييد ما ورد في القرآن.
- الحديث يأتي بحكم جديد ليس في القرآن.

تميز منهجُ الخضر حسين في تناول الحديث النبوي الشريف بملامح متباينة تمثلت في ذكر الحديث دون الإشارة إلى مصدره، أن يذكر الحديث مشيرا إلى المصدر و إن كان لا يعنى بذكر درجته من الصحة والضعف أو التعليق على رجال الحديث، أن يذكر درجة الحديث دون ذكر المصدر.

و بالرغم من عدم انتظام طريقته في تخريج الحديث النبوي الشريف بذكر مصادره التي استقى منها إلا أني أرى أنه قد انتفع في تفسيره بقواعد المحدثين وأصولهم في الرواية. فقد امتلأ تفسيره بالأحاديث الصحيحـــة و الحسنة و ابتعد ابتعادا تاما عن الأخذ بالأحاديث الموضوعة. و هذه ميزة تذكر للشيخ و تبيّن لنا مدى التزامه بالمنهج السليم في البحث في تفسيره و هو في طريقته تلك لا يعتمد على كتب التفسير فقط و إنما يرجع إلى مصادر الحديث الشريف و يأخذ منها.

الفكر العربي المعاصر وقضية التراث

الجزء الثاني

(دور الماضي في تحقيق التجانس الزمني)

بقلم : محمد الرزقي

تمهيد :

تعرضنا في الجزء الأول من هذا المقال للأسباب التاريخية التي حولت قضية التراث إلى إشكالية مركزية في الفكر العربي المعاصر إذ فرضت هذه المسألة نفسها على جميع النخب المثقفة، لينقلب هذا الاهتمام إلى اهمام وصل درجة الهاجس، حتى وصفها البعض بالظاهرة المرضية التي أصابت المثقفين العرب(1).

وأمام احتدام النقاش حول قضية التراث، انقسمت المواقف المسجلة منه إلى ثلاث تيارات كبرى، التيار الأول يغالي في التمسك بالتراث ويدعو إلى العودة للماضي، وهو التيار السلفي عامة، أما التيار الثاني فقد تطرق في رفض التراث واعتبره أصل الداء، والذي مثله عامة التيار الليبيرالي في حين وقف التيار النقدي موقفا وسطا بين هذين التيارين فعبر بذلك عن موقف موضوعي داعيا إلى تمحيص هذا التراث وانتقاء المناسب منه لواقع الأمة الراهن.

لكن ما دور الماضي في تحقيق نهضة عربية شاملة ؟ وكيف يمكن

للماضي أن يؤثر في مستقبل لم يخبره بعد؟ وكيف يمكن الحديث عن دور التراث، والحاضر صورة مشوهة قد تناسلت منه؟ وهل يمكن لأمة ما أن تعيش مجتثة عن أصولها ؟ وهل يمكن للأمة الإسلامية أن تساهم في الحضارة الكونية بعيدا عن هويتها، أليست العولمة شكل من أشكال الثقافة؟ وطور متقدم من أطوار ما بعد الحداثة؟

1- طبيعة العلاقة التي تربط الماضي بالحاضر :

إن الوعي بالذات، يمر عبر تحقيق المعاصرة لهذه الذات، التي يجب أن تعيش عصرها، وتعي بالزمن الموجودة فيه، فتفهم أولا أطره ومساراته، لأن ذلك يساعدها على تحديد احداثياتها على خريطة الوجود الإنساني فمن يفهم زمانه يكون فاعلا في أحداثهن فيؤثر في هذه الأحداث، وبالتالي يحدد مسارات التاريخ، ويكون طرفا بارزا في صناعة التاريخ، فالتاريخ لا يعترف إلا بالأمم الفاعلة، التي استطاعت أن تحول ثقافتها إلى إنجاز حضاري ملموس.

لكن ما علاقة الماضي بالحاضر؟ وكيف يمكن أن يكون الماضي مؤثرا في الحاضر؟ أليس هذا الماضي هو المسؤول عن واقع العرب والمسلمين الراهن؟ إذا لماذا لا نبدأ من الحاضر ونتجاوز الماضي برمته؟.

إذا أردنا أن نعرف الحاضر الحقيقي، قلنا أن الحاضر هو في الواقع "لازمني" ، لأنه اللحظة التي تفصل بين الماضي والمستقبل، فهو بمنزلة

النقطة المفروضة على الخط، وليس جزءا من الزمان أصلان فالحاضر ليس سوى تجريدا رياضيا، يمكن تشبيهه بالنقطة في الهندسة، والنقطة من بين المفاهيم التي تفتقر إلى تعريف دقيق ومحدد، وعادة ما تعرف على أنها عديمة الأبعاد والإحداثيات (2).

فالموجود حقيقة هو الماضي والمستقبل، وما الحاضر إلا حالة افتراضية، تفصل بالتوهم بين زمان ولى وزمان لم يأتى بعد، وكأن الحاضر مجرد فاصل اعتباري يفتقد للوجود الحقيقي على ارض الواقع، باعتبار أن الحاضر سرعان ما يصبح ماضيا، ففي الحاضر يتشابك الماضي بالمستقبل.

ويظهر هذا التشابك بجلاء في حياة الأمم والشعوب، وخاصة ما يتعلق منها بالبعد الاجتماعي والوجداني ونمط التفكير، حتى نكاد نجزم أن الحاضر ليس حاضرا بقدر ماهو تقليد منحدر إلينا من الماضي، مثل طبيعة العلاقات الاجتماعية ونظام التكافل والمبادئ الأخلاقية وطرق الاحتفالات وحتى ألعاب التسلية (3) لينحر الحاضر الماضي، مثلما ينحر التلميذ "حل مسألة مطروحة عليه من قبل معلم" (4).

كما أن السعي لتأسيس تقاليد جديدة، يبرز مظهرا ثانيا من مظاهر هذا التشابك القائم بين الحاضر والمستقبل، لأن المستهدف بهذه التقاليد هم أجيال المستقبل، لا الأجيال الحاضرة، فيحرص

الجيل الحاضر على ترك تراث قيمي تليد، يتذكر بواسطته الأخلاف الأسلاف، وكأن الإنسان هو الكائن الوحيد المقذوف به دائما نحو المستقبل على حد قول هيدقير (5) ولكن الشعور بالإحباط والمعاناة، التي تحسها الجماهير العربية يدفع معظمها على الارتكان إلى ماضي زاهر (6) وهو ما يجعلها تعيش خارج عصرها، فما هو السبيل على إعادة الإنسان العربي إلى عصره ؟

2- دور الماضي في إعادة الإنسان إلى مساره الزمني

يعيش الإنسان العربي منذ بداية القرن العشرين غربة مضاعفة فهو غريب عن ذاته وغريب عما يجري من حوله، حتى أنه صار لا يعرف نفسه وسط هذا العالم، فالعالم اليوم يتميز بسرعة مذهلة، وتحول كبير من خلال اتخاذ صور وأوضاع لم تكن مؤلفة بالنسبة لشعوب مازالت تعاني مشاكل الصرف الصحي، ويغرق أكثر من نصف مواطنيها، في الأمية والبطالة والفقر هذا من جهة ومن جهة ثانية فأفراد هذه الأمة يعيشون القرن الواحد والعشرين بنفسية من عاشوا القرون العربية الوسطى، فيخوضون في نفس قضاياهم، إذ يكثر اللغط حول مسألة خلق القرآن، فهذا يناصر أحمد بن حنبل، وقسم آخر ينتصر للعقل ولمذهب المعتزلة، كما أنهم غارقون إلى الأذقان في مجمل الخلافات الفقهية والكلامية التي كانت سائدة منذ قرون بدءا بالسب والقبض في الصلاة وصولا إلى مسألة الذات

والصفات والأفعال الإلهية.

ولا يكفون عن الحديث، صباحا ومساءا عن عدل عمر بن الخطاب، وشجاعة ومروءة صلاح الدين الأيوبي، وينتظرون ظهورهما من جديد، ويتحسرون عن علماء أفذاذ من أمثال ابن سينا في الطب، وجابر بن حيان في الكيمياء، متناسين أن الظروف التي أفرزت هذه القضايا وأنجبت مثل هذه الشخصيات العبقرية، قد تغيرت وتحولت بل وتلاشت تماما فالعالم تحكمه الصيرورة، وليس الديمومة.

وهكذا يتحول التراث إلى مخزون نفسي فلم يعد التراث حينها دراسة للماضي العتيق الذي طواه النسيان، بل هو جزء من الواقع ومكوناته النفسية، فهذا الماضي بأفكاره وتصوراته يشكل وجدان الإنسان العربي المعاصر.

وهو ما يجعل التراث قيمة حية في الوجود المعاصر لأنه يؤثر فيه، ويكون الباعث الرئيسي لجملة من السلوكيات، وهذا ما يجعل مفكر مثل حسن حنفي يطالب بتجديد التراث، فتجديد التراث، يعني تجديد لعقليتنا المعاصرة، وبيان أسباب معوقاتها، وتحليل عقدة المعاصرة، والتي هي في حقيقة الأمر تحليل للتراث.

فقضية التراث هي الكفيلة، بإظهار البعد التاريخي في الوجود المعاصر، واكتشاف جذورنا في القدم، وهو ما يمكننا من الإجابة

عن سؤال هام، وهو في أي مرحلة من مراحل التاريخ نعيش، ومتى نعود إلى تطورنا الحضاري الطبيعي ؟

كما أن الوعي بالزمن يمكننا من إدراك خط سير الحضارات، التي تتراوح بين الصعود والانحدار، فالحضارة العربية الإسلامية، استطاعت الوصول إلى قمة التطور على مختلف المستويات، نتيجة توفر جملة من المعطيات الداخلية والخارجية، إلا أن تبدل الأحوال جعلها تتقهقر وهذا التقهقر لا يعني الأفول والتلاشي، بل يمكن تشييد بناء حضاري جديد يضاهي أو يفوق ما شيده الأسلاف، إلا أن العقل العربي لا يستطيع تصور حالة يمكنها أن تتفوق على الماضي وتتجاوزه.

ARCHIVE

وهذا فإن فهم ملابسات الماضي، واستيعاب خصائص كل فترة زمنية تلون بها التراث، يجعلنا ننظر إلى الحاضر بكل واقعية، ونعمل على تنقيته ومحاصرة علله، من خلال شحذ العقول، حتى تتجاوز مثل هذه المعوقات، لكن هل العقل العربي مؤهل للاضطلاع بهذه المهمة؟ وما هي علل العقل العربي؟ وما علاقة هذه العلل بالتراث ؟

3- فهم الماضي بوابة لتحديد علل العقل العربي المعاصر :

لعل أبرز من انتبه على مسألة تأثير الماضي في بنية العقل العربي نجد المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي يرى أن العقل العربي محكوم بآلية القياس المنحدرة إلينا من عصور الانحطاط، فهذه الآلية

تقوم على ربط جزء بجزء آخر، ربطا آليا يفكك الكليات ويفصل بين الجزئيات بعيدا عن الإطار الزماني والمعرفي والايديولوجي.

فجوهر القياس يتمثل في قياس الغائب على الشاهد، وهو ما يفقد العقل فاعليته، ويحوله إلى عقل وظيفي مهمته تنظيم المقاربات، وهذا قياس يحمد الزمان ويلغي التطور ويجعل الماضي حاضرا باستمرار : (7) كما أن أدب الحواشي والمختصرات وأساليب التلقين في النحو والفقه، وكل الممارسات النظرية، التي عرفتها الحضارة العربية، قد عطلت ملكة الإبداع، ورسخت عادة الإتباع

فما هو السبيل إلى تحديد العقل العربي المعاصر ؟

لا يمكن الحديث عن تجديد الفكر العربي، أو تحديثه، إلا بعد استهداف العقل المنحدر إلينا من عصور الانحطاط، وأول ما يجب كسره عن طريق النقد الدقيق الصارم، هو "ثباتها البنيوي"، وهو ما يعني إحداث قطيعة إبستمولوجية تامة من خلال محاصرة آلية القياس والقضاء عليها.

فالقطيعة مع التراث عند الجابري، ليس بنفس المدلول، الذي تبناه التيار الليبرالي التغريبي، فالجابري يرفض بشدة هذا الموقف، معتبرا إياه من رواسب الفكر التراثي "اللاتاريخي واللاعلمي"، الذي أفرزته عهود الانحطاط في الحضارة العربية والإسلامية، وإنما المقصود بالقطيعة مع التراث هو التخلي عن الفهم التراثي للتراث، وهو ما يعني "التحول من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث (8) وهذا الأمر لا يتحقق إلا من

خلال اتخاذ مسافة نقدية تفصلنا عن التراث أولا، وفهم العملية الذهنية والعناصر المتحكمة فيها ثانيا، مما يتيح تجاوزا لعلل العقل العربي، وتأسيس عقل فني، يتخذ من التفكير، والسؤال والنقد أدوات لتشييد بناء جديد.

خاصة أن الفكر العربي المعاصر، انقطع عن تراثه، فالتراث العربي ما يزال إلى اليوم مجهولا معرفيا، إلا إذا تجاوزنا تحقيق بعض المخطوطات في شتى العلوم والمعارف، فإننا لا نكاد ندرك الآليات الفكرية، التي أفرزته، ولا المناهج المعرفية، التي اعتمدت لإبداعه، ومن ثمة فإننا لا نجد اليوم باحثين كثر يستطيعون قراءة إنتاج مفكرين مثل الفارابي والرازي فضلا أن يكونوا قادرين على إبداع ما أبدع السابقون، فلو وجد علماء موصولون بهذا التراث، اتصالا حقيقيا، أي اتصالا معرفيا ومنهجيا، لما كان الفكر العربي المعاصر يعرف الأزمة، التي جعلته مجرّد لتراثه، وعاجز عن استيعابه وواصلته.

كما أن معرفة الماضي تصطدم بعائق آخر، ألا وهو مسألة قراءة هذا التراث، فهذه القراءات تكون عادة مسبوغة بطابع ايديولوجي يعكس رؤية أصحابها، مما يخنق الموضوعية، ويفتح المجال واسعا أمام المصادرات والأحكام الانطباعية الشخصية.

وتتميز هذه القراءات أيضا بفقدانها لمنهج واضح، لأنه من الصعب تحديد أين تنتهي المصادرات وأين يبدأ المنهج، لذلك يبدو ضبط منهج بشكل مسبق في حدّ ذاته نوعا من المصادرة، ولتوضيح ذلك نستشهد

بما ذكره المستشرق اليوغسلافي ألكسندر بوقوفيتش عن ثورة الزنج (9) وما لاحظه الباحث العربي احمد علوي في مقاله "تاريخ بلا منهج" أن المستشرق حاول أن يفسر الأحداث من خلال الوضع الاقتصادي للجماهير" والضعف الأكبر لهذا المنهج لا تمثله الرغبة الشخصية، بل الرغبة في تفسير ماضي بعض الشعوب والحضارات بواسطة أفكار غريبة عنها " (10)، ومع ذلك فإنه لا مناص من اختيار منهج، يمكننا من التغلغل في أعماق الماضي والحاضر.

ولعل ملامح هذا المنهج، حدده لنا الطيب التيزيني من خلال دعوته إلى اكتشاف الواقعة التاريخية كما هي بصورة موضوعية وثانيا فهم تلك الوقائع التاريخية من خلال النظر إليها في إطار تاريخي معين وبدقة أكبر، هذه الوقائع ينبغي رؤيتها حركة نمو ذاتية لها تاريخ اعم وأشمل، فهناك الفهم الداخلي ثم نجد الحكم على تلك الحادثة بعد فهمها من الداخل والوقوف على أهم أسبابها ووضعها في إطارها الزماني والمكاني الخاص بها وهو ما نبه إليه ابن خلدون في مقدمته (11).

وفي الختام يمكننا القول أن العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر تخلق نوعا من التناغم والانتظام، فبدون جدلية "لا يمكن للحياة والفكر أن يكونا مستقرين ومؤكدين " (12) وبذلك يستطيع الإنسان العربي أن يتحفز ويستعد لولوج باب المستقبل، خاصة بعد إدراكه لذاته وواقعه واتصاله المتين بماضيه.

ليبقى المستقبل دوما هو المحفز الأساسي للإنسان نحو التفكير

والتخطيط والبناء، فالمستقبل هو جوهر الوجود على رأي هيدقير، فهذا المستقبل لا ينطلق من الصفر بل يعتمد على زخم تراثي هائل، وأولى الخطوات على درب المستقبل هو تحقيق المعاصرة، وبناء عقل فني، فما هو المستقبل الذي ترنو الجماهير العربية إلى تحقيقه؟ وهل الحديث عن المستقبل يقودنا حتما إلى طرق باب الحداثة ؟ وما الحداثة ؟ وهل نستطيع بناء حداثة عربية أصيلة لا شرقية ولا غربية ؟ .

الهـــوامش :

1- راجع الصديقي عبد اللطيف، الزمان أبعاده وبنيته ص 33 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ط1 ، 1955

2- عثمان فتحي تراث الفكر الإسلامي ص 11، دار الطليعة، ط1، 1992

3- باشلار غاستون، جدلية الزمن ص 15، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ط 3، 1992.

4- راجع الموسوعة الفلسفية العربية 467/1، معهد الإنماء العربي، ط1، 1986.

5- راجع البوني عفيف، رؤية تاريخية لقضايا مستقبلية، ص 10، دار الرياح الأربع ط1: 1987

6-الجابري محمد عابد، نقد العقل العربي، ص137، المركز الثقافي العربي، 1990

7- الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، ص 89، المركز الثقافي العربي، ط1، د.ت

8- ثورة الزنج : هي ثورة طائفة من العبيد استمرت من سنة 255 إلى 270 هـ

9- من مقال علوي أحمد، المنشور بمجلة الوسط، العدد 238 بتاريخ 9-8-89

10- راجع ابن خلدون المقدمة ص 10 دار الجيل بيروت د.ت

11- باشلار، جدلية الزمن ص 10

قراءة في : ظهور الروح

بين التجليّات الدينية وطرافة النصّ الأدبي

بقلم : نجاح زقية

القارئ لكتاب **"ظهور الروح" للدكتور محمد الرزقي** الصادر عن **دار سنابل للنشر في 2007** يدرك للوهلة الأولى أنه أمام نص تحكمه الخلفية الدينيّة وتسوقه النزعة الصوفية المعبّرة عن روح الإسلام ولا غرابة أن يتبادر للذهن هذا الرأي، فالمؤلف باحث في حقل الفلسفة الإسلامية وسبق له أن قدّم كتابين يتّصلان بالمباحث الصوفية من وجهة نظر أكاديمية، الأول بعنوان **"تصوّف الحارث المحاسبي"** والثاني بعنوان: **"حقيقة الموت عند الصوفية"** بيد أنّه يقرّر في كتابه الأخير موضوع هذه القراءة أن يتّخذ منحى عمليا يجسّم المعاني الإنسانية السرمدية ويقرّبها إلى الأذهان بلغة محببة ومستساغة ليكون (الكتاب مفتوحا أمام الجميع قراءة، ومحاورة، ونقدا، فلن يقصي أحدا ولن يخيف أحدا) ونسعى من خلال قراءتنا إلى محاولة سبر المعاني المنشودة، وتقصّي أثرها على الصعيد الواقعي، مع رصد مؤشر النجاح في المواءمة بين النص الديني والنص الأدبي من ناحية، ومن ناحية ثانية مدى القدرة على تقديم ظاهرة الروح أو فلسفة الروح في ثوب شرعي يقترب من فهم العامّة وهو الهدف المراد من قبل المؤلف..

نستشفّ عبر عنوان الكتاب : **ظهور الروح** رغبة المؤلف في إظهار ماهو خافٍ ومحتجب، وطموحه لكشف المستتر الغامض، كما نستشعر من خلال عبارة ظهور "المغربة" في سياق اقترانها بالروح احتمالية وجود إجابة عقلية مقنعة حول ماهية الروح، التي مازالت من بين الإشكاليات المحيّرة للإنسان وتعتبرها الثقافة الإسلامية بمقتضى النص القرآن الكريم من أمر الله وحده : "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي " " تعرج الملائكة والروح إليه" "وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا" فبطريقة مقصودة أو غير مقصودة يتباعد القارئ منذ البداية عن مسلّماته الدينية وإرثه الثقافي وذلك نتيجة الربط بين لفظ الظهور وما يكتنفه من مكاشفة ورؤية، وعبارة الروح وما تختزنه من غموض وقدسيّة، وهكذا يبدو سعي الكاتب لتقديم مقاربة جديدة وطريفة ومحفّزة للقراءة، ومتى تتبّعنا محتوى الكتاب نجده قد انقسم إلى أربعة فصول بالإضافة إلى المقدّمة والخاتمة والفهارس، ويتّضح انطلاقا من المقدّمة موقف حضاري تجاه الوضع الراهن للعنصر البشري، هذا الكائن الذي "شيّئته" إرهاصات العزلة وزجّت به في متاهات المادية والغربة، والتهميش، بحيث تحجّب جوهره الإنساني التوّاق للقيم العليا: الخير والمحبّة والجمال ولم تعد تبرز منه سوى المظاهر والقشور، وحاول الكاتب صياغة مخرج للأزمة متمثّلا في التربية السليمة التي تعيد الاعتبار للحياة الفكرية والروحية لدى الإنسان، كما تضمّنت المقدّمة تلخيصا عامّا لمحتوى الأثر ولكن أهميتها تكمن أساسا في كشفها المبدئي عن لغز العنوان وعن

مكان اختفاء الروح، فتزيح أي للتباس.

وتشير إلى أن الكاتب لن يبحث في حقيقة الروح أو ماهيتها بطريقة تقطع مع الرؤية الإلهية ولا هو يدّعي إعطاء تفسير مبتكر لمبحث ستظلّ العقول البشرية جمعاء عاجزة عن استيعابه خارج المنازع الدينية وإنّما سيتعامل مع المسألة بأسلوب بسيط ومن زاوية إسلامية صرفة مؤمنا بأن الروح تبقى سرّا إلهيّا مكنونا وإليها تنتسب جميع الأخلاقيات المتصلة بالقيم والمثل العليا، والإنسان خليفة لله في الأرض يتحمّل مسؤولية تامة وحكمة سامية للحفاظ على شفافيتها ونقائها من جميع الشوائب فالباحث إذن بعد أن "خاتل" القارئ عبر العنوان تلك المخاتلة الطريفة والشريفة والمثيرة للفضول يعرّج وينبّه عن طريق المقدمة وباقي الفصول إلى مدار الأفكار والتصورات وهو المدار الإسلامي الذي يراه محتكما إلى ثنائية العقل والروح وإن كانت الروح أعلى درجة من العقل، كما أكّد مرارا على أنّ الشريعة الإسلامية هي المخرج الحقيقي والسبيل المتاح للخلاص من متاهات الغرائز والظلال والانفصال عن الذات وعن العالم إذا استطاع الإنسان تحويلها من نظرية إلى نمط حياة على المستوى النفسي والواقعي. وتجدر الإشارة إلى أنّ الفصول الأربعة لكتاب "ظهور الروح" هي كالأتي :

1- حقيقة الكتابة /2- حكاية قبل البداية /3 - الوعي ومراقيه /4- أطوار الروح

ولعلّ ما يستوقف القارئ الشغوف بأدبيّة النصّ من حيث بنيته

اللغوية ومتانة حبكته الفنية أكثر من الشغف بالمفاهيم العقلية والفلسفية أو الدينية ذات الصلة بالشرائع والأحكام- وهي مفاهيم نجح المؤلف إلى حدّ بعيد في تقديمها بأسلوب مبسّط أو سهل ممتنع وفيّا بذلك لهدفه الأساسي : تقريب الرؤية الإسلامية من أذهان الجمهور فيما يتّصل بظاهرة الروح وغيرها من المسائل الدقيقة والإشكاليات العويصة، وإن تراءى غير متخلّص من أسلوب المحاكمة الاجتماعية والحضارية ومن النزعة الإرشادية الواعظة – ما يستوقف القارئ المذكور آنفا كما قلنا، هو قدرة الكاتب على إقامة جسر بين البعد الديني وطرافة النصّ الأدبي ويبرز ذلك من خلال الفصل الثاني على وجه الخصوص لأنّ حكاية قبل البداية تبدو حكاية أدبية بتميّز وتستوفي إجمالا شروط النصّ القصصي من حيث الأسلوب السلس والطريف الذي يذكّر بأسلوب الجاحظ وابن المقفع، إذ اللغة عربية معتّقة، والأدوات الفنيّة تعتمد على المجاز والاستعارة، والتشويق وغيرها من الوسائل وقد أكسبت هذا الفصل بالذات روح الأقصوصة في أجمل صورة، ممّا يدعونا لترك باب الفضول مفتوحا أمام القرّاء لحسن الإطلاع على الكتاب برمّته، والحثّ على التأمّل فيه لأنه اثر قيّم يستحق أكثر من قراءة ومحاورة، مثلما يستحق النقل إلى أكثر من لغة، على الأقل لمحاولته تقديم رؤية إسلامية بسيطة وأصيلة، حول جملة من القضايا الراهنة والظواهر الغامضة بطريقة معاصرة وشيّقة تعبق بلاغة وحسن بيان وهذا ما نحن بحاجة ماسّة إليه.

ARCHIVE

زمن الرحيل من بلاد القحط

شعر : الهادي العثماني

ربما .... قلت للدرب : إني تعبت

وأبليت أحذيتي ، يا طريق

لكم طوحتني بك الأمنيات

فأوعزت للشعر : بح يا رفيق

سنمضي إذن ... سوف نمضي معا

إلى فسحة خلف هذا الكلام

وينسج الدرب لما يضيق

سنظل نرحل حيثما خلف أطياف الأماني

ونظل نرفع راية السفر المعلق بالرجا ...

والعشق أغنية تليق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونظل نحمل حلمنا – أو وهمنا –

نمضي بنا الأشواق . . .

تسبقنا السحابة والبروق

أعيتني "فاطمة" وطال غيابها

وأنا المدجج بالهوى

وأنا المضرج في النوى بمشاعري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسط الحريق

وأنا كأنت، يا رفيق الدرب

مرتبك أصلي

على لظى الحزن العتيق

هذي المرابع أقفرت

سكنت ثعالبها المنازل، واحتفت خرابها

فارحل سريعا يا صديق

هذي المرابع قد خلت من ساكنيها

عمها القحط، وجفت أرضها

فغدت خواء . . . بلقعا . . . فجا عميق

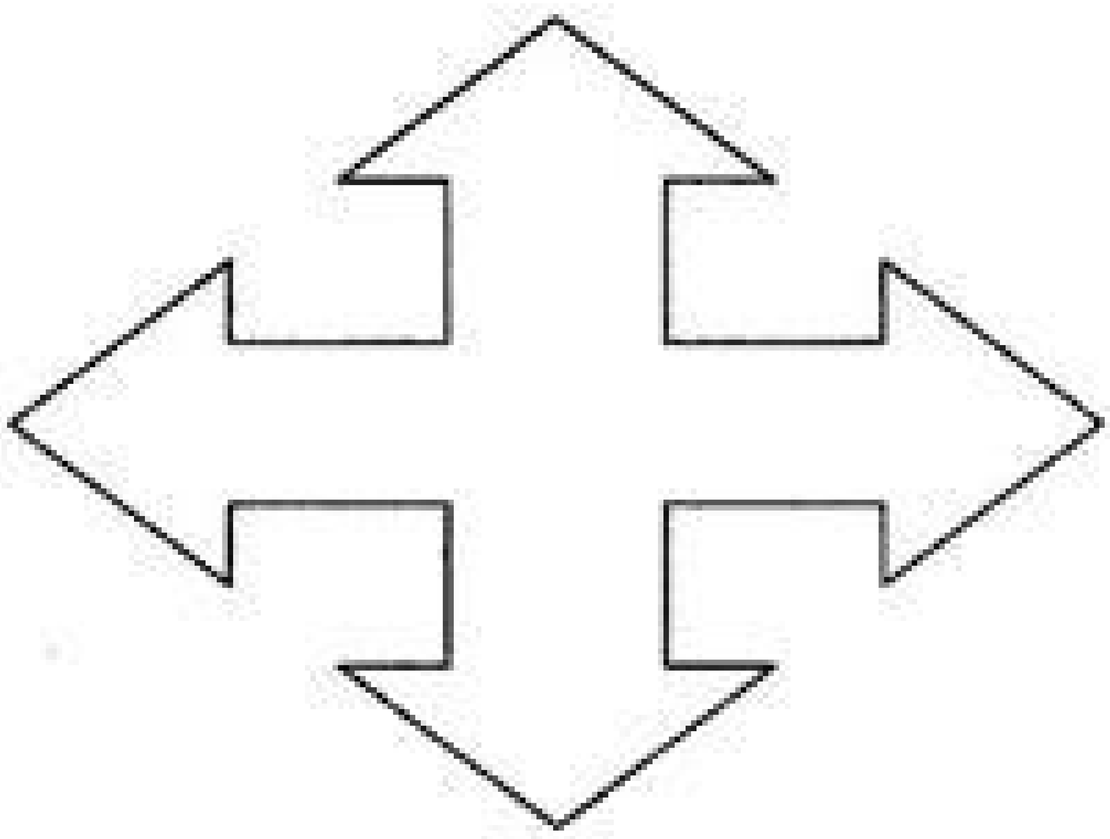
دعني إذن امض بعيدا

وامسح أحلامك الخضراء كي تمضي معي

اثنان في غبش الدجى نسري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وثالثنا الطريق



الضوء الخامس

شعر: هشام حنيرة

يشي، معي

احس تناهى ..

تعادى ..

وغاب وعاد

فرش البوادر المظلمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نظم السقوط

وطعن الثمار

حزني مرج

لما البحرين يلتقيان

تعاني الزوج مني

تستغفر المرار

خلالي لعلّه

فلك يئيم

رهو الحياة تخوض

أمر فلك عظيم

تختص بالاحضار

كالنهي عني

الزوج مني

وأمر جروحي

غلال تدللت لقطفي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأتى المشهد لذة من دمار

الزوج حلت . .

على . . لزوم رد البكاء

أقامت

"نيلوفرا"

في دموعي حزين

دواهي الغروب

أجهشت بالذكاء

وانطفى

ساحر الجلنار

النجوم ثلوج

بمقاف السماء

تربض فوق عظام المدى

وآلام السواد

أوراق الأرض تسقط

تواري لحين الوجود

والعراء . . ينظر

في كل منظر

ويصفع كل بذور الحداد

الورد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والعمر

يقتتلان

القبر شقتي

والرميم جنان

يكشف دمعي

عن هميم

عند بلوغي مسار الأقمار

وفيه المنار المعفر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والانكسار زجاج..

يصف

مهمز جدا

أكون مرقعا باللغة

ممزقا بالأماني

حبر إيماني

والصفحة سجدتي

وانفعال المعاني

لا يهمز انكماش الغروب

فهو قطار يحمل الشمس

والشمس دوما رحلة

ودور النهار

تفجرت من صخرة الروح حالا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عصب الزلال

مريضا أأود الفضاء الرحيب

بضيقة صدري

دور هلالي مضبب

شموع كثير منها تعش

أعشو عنها أسباب البلوغ

والضوء في النزع الخامس

قصائد الأسئلة

شعر : عبد المجيد اليوسفي

1

أسود الحجر توارى

والطفل

لازال تحلم بالراية

ماذا لو يصدق الحلم

فيكذب حجم الحكاية . . . ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2

قالت احبني

لو لحين

أو لوقت مضى

أو لا للزمن

قلت وجهي اختزال الرؤى

فما حاجتي للنساء

إذن . . . ؟

3

حدّد رسما على

خارطة

وقال : أجبني أين البلاد . . . ؟

قلت : عجبي . . !

بلاد بأسرها في ورقة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

4

أشتهي . .

ماذا أشتهي ؟

وجها لوجهي ؟

كي انتهي ! ؟

5

في المناء

تلك الأم

تنازلت عن فتاها

ما ذنب المخاض إذن . . ؟

6

حين رحل الجميع

مارست انتضاضي

أقول لو حدثتي . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما المانع لو دعوتني

في صفة الجمع ؟

7

مارسني الطعن فقلت :

إني ضئيل الوجع . .

عساني أرى ما بعد الحريق

قالوا : لا طريق بلا دماء.

آمنت

وهذا البحر شيء من دمي

فأين الطريق . . ؟

8

غرفة موحشة

والسرير

ماذا ، لو نمر العناكب

عرسا . . ؟

و

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاخت مدائننا القديمة

ولم تلد

يا لهذا الطفل وحيد

من يمازح في البلد . . ؟



لا تسئ فهمي

شعر: منيرة بلحاج

لا تسأ فهمي فإني ... من عذاباتي أغني
وعنائي سكب روحي ... وشغاف القلب مني
العنا فيه مرامي ... عالم رضعت بهني
فيه أحظى بأمان ... لم تزل قيد التمني
وحروب أشهرتها ... قد نآها الخطو عني
مجرد طلق جناحي ... حطمت أسوار سجني
نغمتي رجع المآسي ... ملتقى خيبات ظني
وارتعاصات اشتياقي ... وصدى وقع التجني
في مواويل القوافي ... آهة تبكيك عني
عن عثار وانكسار ... وانطلاق وتشني
فنين فيها معنى ... رنما يبكيك لحني
رنما تلمس جرحي ... رنما تدرك أني
إنما أبكي بقلبي ... عندما تخجل عيني

بيت العنكبوت

شعر: محفوظ غزال

نشأ الأقدار بالحب الجميل وبورد الحلم في الليل الطويل

وبرش الشهد من عذب اللمى وبلثم الراح في شمس الأصيل

يا فؤادي كم طربنا ليلة ثم أصبحنا على الخطب الجليل

لم نعد ندري متى ميعادنا واليقين الحق للقلب العليل

كم ركبنا ظهر أوهام الهوى ونزلنا عنه للظل الظليل

غير أنا إذ نمطي حاسرا أحرقتنا الشمس في عز المقيل

وبقينا مثل أسراب القطا تخشى من أخذ صياد وبيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وذرى رقص سراب اسس فتمني النفس بالربع البليـــل

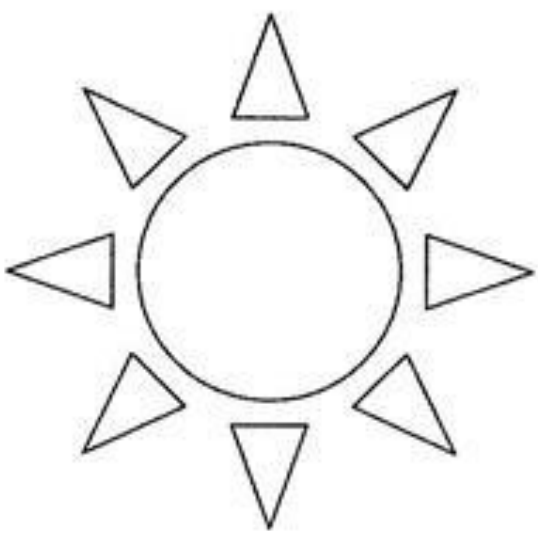
ثم لا نلفى سوى أدمعنا ماء محيانا على الخد الأسيل

كيف يا قلب أتخذنا معبدا من نسيج العنكبوت المستزيل

كيف آمنا بمن لم يـــهدنا غير نجد الضرب في ماء المسيل

دون مجد كل نجد غير مجد لو بدا للعين في حسن الخميل

مثل الدنيا جواد سابـــح كالصدى زينه حسن الصهيل



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نـــداء الروح

قصّة: هاجر بن حمادي

هذه أول أشعة للشمس بدأت تتسرّب من ذلك الأفق البعيد تبشر بانطلاقة يوم جديد سيمر كغيره من الأيام ويبقى في طيّات الذكريات بين فراغات الزمن. لم يكحل النوم هذه الليلة رغم أنه حاول مرات متكررة أن يضطجع لكن النوم ظل الطريق إلى عينيه.

بل إن حيرته وتشتّت تفكيره قد أذهبا النوم عنه. كيف له أن ينام أو يشعر بلذة الراحة وهو يعاني من ألم نفسي مميت كان يقول في نفسه :

ماذا تراك فاعل يا أمين ؟ يقولون إن الدراسة أساس حياتك وقوامها، منبع سعادتك ورضاك، لكنك لست بالمتميز ولا بالنابغ. لست ذكيا كي تتفوق مثل غيرك من زملائك.

الدراسة الدراسة لطالما أكد أبواك عليك . لكن ماذا لي أن أفعل، فهمس الورق وغموض الكلمات لا يدع لي أية فرصة كلما شعرت بالفهم أو تكلفته خاب ظني مرّة أخرى ؟ ... يقولون علي اختيار المسلك الذي سأتبعه، ماذا لي ان أختار سوى الضياع والغموض فمسلكي أو بالأحرى شعبتي المستقبلية هي الضّياع والغموض.

عندما أفتح الكرّاس أو الكتاب لا أفقه شيئا بل أشعر باليأس والملل يخنقني.

ترى ، ما جدوى هذه الدراسة ؟ لكن بركة، ويركة، ماذا هناك ؟ أتراها أضحت أهم من الوجود والإنسان ؟ فكما يقول أستاذ الأدب العربي: الإنسان بلا عقل، ذكرى إنسان، إذن فأنا ذكرى إنسان، فليكن ماذا لي أن أفعل ؟ ذلك قدري لكن مهلا ماذا يقصد بذلك ؟ لماذا ؟ ألم يفلح أي شخص قد امتنع عن الدراسة، فهذا جارنا فلان وذاك صديقي فلان، إنهما لم يواصلا الدراسة ورغم ذلك فهما يعيشان في رغد وطمأنينة حسب ما أتبيّن. ولنفرض مثلا. ماذا لي أن أفعل، فالكثيرون قد تحصّلوا على شهائد عليا و لم يفلحوا. هاهم ملقون تحت الجدران المحاذية للمساجد ، كأنهم عابروا سبيل يتوسلون منك صدقة. منهم من ذهب إلى الحواضر وهو في حالة يرثى لها من الضنك وضيق العيش. ماذا تراهم فاعلون بما كسبوا من علم، إذن لا بدّ من حل، لابد من طريقة وإلا لضعت في خضم متناقضات هذا الوجود وجرفني التيّار. ترى ماذا يخبئ لك الدهر يا أمين ؟

في صباح اليوم الموالي، تمطى أمين في فراشه، مستعذبا ذلك الدفء الذي يسري في الأوصال ويغريها بالبقاء في الفراش دون مغادرة أو سعي بعد ذلك القدر العذب من النوم. ربما هو نداء النفس الأمارة بالسوء التي تقتنص الفرص لتثنيك عن عزمك وعما تقدم عليه من أعمال.

همّ بالنهوض، لكن عاوده ذلك السيل من الأفكار التشاؤمية الذي استبد به كامل الليل، فأعاد الغطاء واستسلم للراحة مرددا في نفسه:

ماذا في الحياة يستدعي القيام ؟ واصل كامل اليوم وهو يغط في نوم ثقيل، زاده تشبثا بالفراش والراحة.

رغم محاولات أمه المتعددة لإيقاظه، لم تفلح كلّ محاولاتها. كانت بحنان الأم وحرصها على مصلحة أولادها تتردد عليه من حين إلى آخر عله "يرجعلوا شاهد العقل" قائلة في كل مرة ، "عيش وليدي قم النهار راح".

- لا يهم، دعوني أنام، ليس لي ما أسعى لأجله.

- هداك الله، هيا وإلا كان عقابك شنيعا الليلة عند عودة والدك . أفهمت ؟ أتسمعني ؟ آه ... آه من شباب هذا اليوم. لقد شاب رأسي ولم أرى كيدا أعظم من كيد ومأساة شباب هذا العصر. أين شبابنا وأيامنا. أيام كان الأطفال يرتعدون لذكر آبائهم، يستفيقون منذ الفجر، ينهضون بكافة أعباء البيت من جلب الماء من العيون النائية وسقي للأراضي وإعداد للبيت إلى آخر ذلك من الأعمال ورغم ذلك لا يرفعون عيونهم أمام والديهم. الطاعة ولا شيء غير الطاعة بينما أنت لا تستحي وتقول لي "ليس لدي ما أسعى لأجله" أو تجرؤ ؟ يا خسارة تعبي من أجلك. صبرا ، صبرا، فقط للمساء عندما يأتي والدك وسترى. غمغمت الأم وأقبلت عليه بهذا السيل من النصائح والمواعظ الممتزجة بالأسف على ابنها "الطائش" على حدّ قولها. ورغم حنقها وشديد غيضها إلا أنها دعت له في باطنها خيرا راجية من الله أن يرشده إلى سواء السبيل. مع الرابعة ظهرا، أفاق أمين من النوم، متهالكا على نفسه

يتزوج نصيبه بين النقمة على الواقع المرير والرغبة في التحليق في سماء أخرى. إنه يريد التحليق يريد أن يتمتع في حياته مثل بقية أصحابه ويتخلص من هذا القيد الصدئ لتعادات و المعتقدات البالية للمجتمع وتراهيسه.

أليس كبيرا، إنه قد أصبح رجلا لا يحتاج إلى وصيّة والديه بعد الآن أتريد أمه أن يهزأ منه أصدقاؤه ويقولون له "ابن أمه".

دخل المطبخ يستطلع أجواءه، وجد أن أمه قد أفردت له نصيبه من غذاء اليوم كالعادة، فهل كما عهدها أمه الحنون التي طالما فضلته على إخوته ولبت له رغباته ودللته ومهما توعدت سوف لن تشكي به لوالده لما تعرف من قسوة عقابه وصعوبة مزاجه. تناول ما كتب له ثم اخرف يلبس ثيابه التي سئم منها هي الأخرى. يريد ثيابا جديدا على "الموضة" هذه الأيام مثل زملائه حتى يستطيع ان ينال اعجاب بذات الحي ويخرج مزهوا بين رفاقه.

عندما همّ بالخروج من البيت، اعترضته امه في فناء الدّار فحاول جس النبض ملقيا عليها التحية قائلا لها "صباح الخير" فردّت وكأنما كانت تنتظر ذلك : صباح الخير وفي هذا الوقت. ألا تستحي من نفسك ؟ ماذا ستفعل بشأن دراستك ؟ ماذا سأقول لوالدك ؟

بما أنه قد تعوّد على ذلك الوابل من النصائح لم يوليها الكثير من العناية أو التأثير. وحاول كعادته بمكره المعهود أن ينسيها ويخفف حدّة غضبها وحنقها، فقد عرفها طيبة القلب، حنونة لا تصبر على ابنها

المدلل المحبوب . فثلمها قبلة على حبينها متبعا ذلك بضحكة بريئة متوددة محت كل خطاياه وجعلت الأم تخفف من حدة غضبها.

خرج من البيت متثاقل الخطى، لا يلوي على شيء، ضفق يسير إلى أن اعترضه زملاؤه ورفاقه الذين اتخذوا ركنا من الشارع مجلسا هم يتراشقون فيه بالطوب ويشيّعون الرائح والغادي بنظراتهم، خاصة إذا كانت فتاة فلا بدّ ان يطرق سمعها كلمة جانبية إذا لم يكن قصيدة موشّحة من الكلام الزائف من تلميح وضحك و ... ساعين للسير على منوال "عمر بن ربيعة" في ذلك. هذا إن أفلحوا طبعا، لكن بلغة "الميساجات" لا بالعربية الفصحى، لغة لا يفهمها إلا شباب هذا العصر...

هذا إن لم يلحقها واحد منهم، محاولا فإن قابلته بالرد والتفت ضاحكة، واصل السير معها وإن أشاحت بوجهها عنه، رجع إلى رفاقه محاولين مرّة أخرى علّ "الصنارة تخطف" على حدّ تعبيرهم.

دعوة للبقاء معهم، سائلين إياه عن سبب غيابه، بيد أنهم يعلمون الإجابة فكلهم على نفس الوتيرة من الكسل وعدم المسؤولية. بعد دقائق من جلوسه صحبتهم، أخرجوا السجائر من جيوبهم ليخففوا بعضا ممّا في نفوسهم من ضجر داعين إيّاه إلى مشاركتهم. فالسيجارة تخفف من همومهم وتريحهم بعضا من الوقت من الضغط والتمزّق الداخلي الذي يحسّونه جرّاء كبت الرغبات والقهر المتواصل، المتولد عن كل يوم يمرّ .

دعوه إلى مشاركتهم، فلم يمانع. ارادها تجربة فما لمانع من ذلك ؟ لكن لو مر والده دعوه، سيكون لذلك عقاب شنيع له. لا يهم إنه رجل الآن، أما زال والده يلاحقه ويملي عليه رغباته ؟ إنه ليس أقل من أصدقائه وليسوا أحسن منه على كل حال. بل إن والده يدخن "أحلال عليكم، حرام علينا".

استنشق ولأول مرة رائحة السيجارة ونفثها من أعماقه، فأحس باختناق في بداية الأمر وطفق يسعل بصفة متواترة مما جعل رفاقه يسخرون منه لعدم قدرته على التحمل، وقد حزّ ذلك في نفسه. لكنه وبالتجربة الثانية صار يتذوّق طعم السيجارة ويعشقها.

يا لها من لذّة،، لقد احس براحة لم يعهدها من قبل في داخله.

من هنا صار له عهد مع هذا الورق الملفوف. صار يتقشف ويبخل على نفسه في سبيل تذوق هذه السيجارة، وخشية من والده اتخذ من الحلوى أداة لتغيير رائحة فمه.

لبث على هذه الوتيرة من السلوك مدّة ليست بالوجيزة وهو يتغاضى عن نصائح أمه وتوعداتها بإخبار أبيه من جهة ومراسلات مدير المعهد من جهة أخرى. لكن ما كل مرة تسلم الجرة وما كل مرة تنجح الكرة، وقع الظرف في يد والده وكان ما لم يكن في الحسبان، بعد ان طفح الكيل وضاق والده ذرعا بتصرفاته غير المسؤولة على غرار علمه من أمر تسكعه في الشوارع ومخالطته لأهل السوء والتدخين و ...

عند عودته ليلا إلى البيت، وجد والده في انتظاره والغيظ يطفح من

عينيه وجميع كيانه، فلم يجد من حل إلا أن طرده من البيت قائلا له :

"أخرج، عندما تصبح لك نفس مسؤولة وعقل يميز بين الصحيح والخطأ، عد إلى هذا البيت " خرج هاربا، مخافة لحاق والده به، فهو ايضا قد مل وسئم من هذه الحياة الرتيبة. إنه يشتاق لطعم الحرية.

بعد سير طويل، سيرُ التائه الحيران الذي ضاقت به السبل لمعت بخاطره فكرة الذهاب إلى صديقه أحمد الذي كان يعيش في أسرة ميسورة الحال والذي يسكن بيتا قد انفرد به لوحده بعيدا عن عائلته. وقف بالباب متردّدا بين الإقدام والإدبار، لكن داس على نفسه وطرق الباب. لبث منتظرا لكن صديقه هذا غاط في نومه، فرن الجرس مرّات متوالية إلى أن خرج له أحمد. غمرت محيا أحمد علامات الدهشة والاستغراب سائلا إياه عن سبب قدومه وفي هذه الآونة المتأخرة من الليل، داعيا إياه بعد ذلك إلى الدخول بعد أن أمطره بذلك الوابل من الأسئلة، اخبره بما كان من خلافه مع والده وطرده من البيت. فطفق الآخر ضاحكا وقال : لا عليك أنت معي، هيا لا تيئس... ليت لي أبوين مثلك يهتمان بأمري حتى وإن غضبا مني فأنا راض.

لم يلبث أمين إلا وأطلق الزمام لنفسه، زمام المتعة وإشباع الشهوات. صار يتردد كثيرا على المقاهي والنوادي الليلية وبذلك تجمع له العديد من أصحاب السوء.

كان هؤلاء الخلان ينون من الأوهام قصورا وقصورا... حتى تسربت إليه فكرة الخروج إلى احد البلدان الأجنبية لتحقيق المال

والشهرة. ففي الهجرة سيكون أملة منذ الآن، في البصمات المتبقية من طيوف حلمه أناخ رواحله. سيتحقق مبتغاه ما إن يتخطى حدود البحر ويلج إلى بلد الحضارة والعقول المتفتّحة، عزّة نفسه تأبى عليه أن يكون نكرة، الحلم يصنع الإنسان. إذن هاهو الحل...

هناك سيعمل ويربح المال، فكما سمع مستوى العيش مرتفع جدا. سوف لن تعترضه العوائق كما هو الحال هنا. سوف يعانق سماء الحلم ويستنشق عبير الحرية وشذاها. سيحقق ما تصبو إليه نفسه الظمأى التي تريد أن تعبّ من ملذات الحياة عبّا قبل فنائها ومصيرها الحتمي. سيحقق طموحات الأسرة ولن يعيش هروما بعد اليوم. لكن هل يتحقق الحلم ؟...

وبات منذ راودت فكره تلك الخاطرة ودغدغت نفسه التي كادت تقع في يمّ اليأس والعجز لا يغمض له جفن إلا عليها ونفس الشيء عندما يغفو أو يستيقظ. صوّر له شيطان حلمه من الأماني ما أذهله والأحلام ما أيقظ فيه كبرياء نفسه وطموحها الجامح الذي تخطى حدود المنطق. في ليلة من تلك الليالي التي يختلي فيها بنفسه ويغص بذلك الوابل من الخواطر والأفكار التي تخرجه من العالم المحسّوس لتلج به إلى عالم مجرّد، سمع هاتفا يهتف به: أفق من سباتك ولا تستمر فيه. إنّي أراك تغرق في الوحل واليأس ولا تبصر. إنك تحلم باقتحام جامحة وطموح متجدد وعزيمة لا تنثني امام العوائق والصعاب.

هذا لا يتوفر لك إلا بالعلم والإرادة، فهو بحر هائج ومالنا إلا قطرة

في ذلك البحر أو طيّة بين أمواجه. وعليك أن تعرف ان العلم لا ينحصر فيما تدرس، فالحياة علم والإنسان في حد ذاته علوم وكنوز مخبّأة تتحين الفرصة للتفجر و الإبداع.

الحياة تجدد لا ينتهي مداه. فمالك اليوم تقف مهزوم الوجدان، مسلوب الإرادة ؟ أين إنسانية فكرك ؟ إن من يسعى إلى أيسر السبل وأتفهها فضلا عن خطئها يكون ميتا حفر رمسه بيديه. ومن لو يقدمه العزم أخّره العجز .

من أين لك أن تبحر في حضارة أجنبية، غنية مختلفة عن حضارتنا ؟ بالطبع سوف تجد نفسك في آخر المطاف مثل السفينة الهائمة في بحر هائج الأمواج لا ربان لها ولا شراع تساعدها على تدارك العاصفة.

لا تدع المظاهر تخدعك ويجرفك سيل الشباب، انظر إلى الحياة بعينين حالمتين وابحث في داخلك عن طريق يؤمن لك ما تريد، طريق تعبّده بالأمل والعمل الجاد والطموح الواثب النازع إلى العمل والمكابدة وتحشم الاتعاب. إنك تصبو إلى التميز والإنعتاق من أفق القيادة، إذن مالك عاجز ؟ ... تذكر لعل الذكرى تنفعك. اكسر طوق اليأس واطرد عنك هذه الأفكار الصدئة واستعد للعمل. إنك ستحقق حتما عودة الروح والعود احمد يا عزيزي. استفاق امين من سباته أو فيما يشبه السبات وهو يردد في نفسه :

"ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل"...